سوار الملكة

دعاء عزام

الكتاب : سوار الملكة

المؤلف : دعاء عزام

رقم الإيداع : ١٥٩٠١ \ ٢٠١٩

الترقيم الدولي : ٢- ٠٧ - ٦٧٤١- ٩٧٧- ٩٧٨

***

دار الميدان للنشر و التوزيع

جمهورية مصر العربية

هاتف 01099135074

Website : www.daralmidan.com

E- mail : almidan@daralmidan.com

تمهيد

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إن الغضب جمرة توقد في القلب ألم تروا إلى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه فإذا وجد أحدكم من ذلك شيئًا فإن كان قائمًا فليجلس وإن كان جالسًا فلينم فإن لم يزل ذلك فليتوضأ بالماء البارد أو يغتسل فإن النار لا يطفئها إلا الماء)).

صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم

١

صعدت على الدرج في خفة وعجلة وراحت تشهق وتزفر جراء الجهد المبذول في ذلك، وبعد دقائق معدودة توصلت إلى باب شقتها، فابتدرت بإخراج المفتاح من حقيبة يديها ثم قامت على الفور بفتح الباب وعندما ولجت إلى الداخل ألقت بحقيبة يديها على أريكة بالصالة، ثم رميت بمجموعة من الكراسات والسجلات كانت بحوزتها على المنضدة، وهرعت إلى المطبخ وشرعت في إعداد وتجهيز طعام الغداء بسرعة فائقة وبمهارة وحرفية، وبعد وقت وجيز فرغت من الطهي، فجلست على مقعد بالمطبخ وهي مطرقة شاردة ساهمة، انسجمت الدموع على وجنتيها بغزارة، فطفقت تكفكفها وهي تتبتل إلى الله وتقول: يارب فرج كربتي.

فاستشعرت بأحد ما يهم بفتح الباب، فنهضت على الفور واتجهت إلى الصنوبر وقامت بغسل وجهها بالماء المنهمر؛ لكي تمحو آثار العبرات من مآقيها، ولكنها لم تسطع أن تمحو الأتراح والأحزان من سويداء قلبها.. وبعد قليل دخل زوجها وهو رجل في مستهل الأربعين من عمره، قد وخط الشيب رأسه، مكتنز البنية ويبدو على سمته النصب والإعياء فأقرأها السلام بصوت أبح.

فردت التحية بأحسن منها، وذيلتها بقولها .. .ما بكِ يا علي؟

أجاب الزوج: المواصلات كانت شاقة جدًا.

_ألم تفرغ بعد من تصحيح الاختبارات.

_لم يتبق غير يومين.

_كان الله بعونك.

_وماذا عنك يا أسيل؟

_لقد انتهيت اليوم من تصحيح الامتحانات والحمد لله.

_جميل جدًا..

_توا سأقوم بإعداد سفرة الطعام.

_وهو كذلك.. سأذهب الآن لتبديل ثيابي.

جلس علي على المائدة وراح ينهم الطعام نهمًا، بينما جلست أسيل متجهمة شاردة، فلاحظ زوجها ذلك، فقال لها عندما انتهى من تناول طعامه،

_ما هذه الغبرة التي تعتلي وجهك؟

_لا شيء.

_أنا أعلم سبب حزنك جيدًا.

_إذن فلماذا تسأل إذا كنت تعرف؟

_لأنني مشفق عليكِ..

_راضية بقضاء الله.. والحمد لله.

فقال بتودد واستجداء: نتوكل على الله.

ونقدم على إجراء عملية الحقن المجهري.

_إنها باهظة التكاليف؟

_كم وصل رصيدك الآن في دفتر توفير البريد.

_حوالي خمسة عشر ألفًا.

_عظيم..

_إنه مبلغ بخس بالنسبة لهذه العملية.

_هل نسيتِ ميراثك الشرعي؟

فبسرت وعبست ثم قالت .. ماذا تقول؟

_لقد توفى والديك منذ فترة.. ولم يعطيك شقيقك إرثك الشرعي حتى الآن..

_كلما أردت المطالبة بميراثي من أخي .. شعرت بحرج بالغ.

_لماذا؟

_لأنني شقيقته الوحيدة.. وأراه مشغولًا وكادحًا هذه الأيام في عمله..

_لكنه يسكن في بيت ريفي رحيب.. بيت والديك بالقرية. لماذا لم يقدم على هدمه وبيع أرضه الواسعة.. ويعطيكِ إرثك ويأخذ إرثه .. ويشيد به بيتًا جديدًا.. ثم يتزوج..

_لقد فتحته في أمر الزواج، وألفته ممتنعًا عن ذلك تلك الأيام..

_هذا ليس شأني. ثم بدل نبرة صوته الهادئة بنبرة أخرى غليظة.. لابد أن تسمعي كلام زوجكِ.. غدًا .. بإذن الله. شد رحالكِ على قريتكِ، وطالبي بحقكِ من أخيكِ.

_فقالت وهي مذبذبة ومترددة .. لكن..

_فقاطعها بزجر وقال: هذا ليس وقت؛ لكن، فالوقت يداهمنا، ولابد من تدبير نفقات العملية بأقصى سرعة ممكنة..

لم تجد أسيل مناصًا من الإصغاء إلى زوجها والامتثال لأوامره؛ لأن حلم الأمومة يراودها بين الفينة والأخرى، ويكاد يصرعها كلما تذكرت أنها عاقر، ولن تستطيع الانجاب أبدًا، وليس لها أي مخرج غير إجراء عملية الحقن المجهري، وقد تحتمل أيضًا النجاح أو الإخفاق كما أخبرها الطبيب، ولكنها كالغريق الذي يتعلق بثمامة

أو قشة، فكل ما يعنيها ويستحوذ على كيانها المضطرب هو أن تصبح أما بأي وسيلة كانت، فالعقم الذي ابتليت به كان ومازال سبباَ في حزنها الدائم، وانكسار ذاتها أمام المعارف، والأقارب، والزميلات، والصديقات، والجيران، فلقد خبت البهجة من حياتها، وخمدت السكينة من فؤادها، ونقصت الثقة والاعتداد بالنفس من ذاتها، فودت لو أن تتوارى من الخليقة رأفة بنفسها الضعيفة البائسة الواهنة، فما عادت تتحمل أية كلمة رثاء أو شفقة من أحد المشفقين عليها، أو كلمة قارصة جارحة من أحد الشامتين فيها، فكل يوم يمضي عليها تتقلص فيه فرصتها في حلم الأمومة، فالوقت يمضي كالبرق، وهي في طريقها؛ لتصبح من القاعدين فالعمر يقترب بها من سن الأربعين، وهذا الأمر الجاشم يقض مضجعها قضًا، وشبح العقم يطاردها أينما ولت وجهها، بالمدرسة مكان عملها، وفي السوق عندما تشتري الخضروات وتقول لها البائعة .. اشتري هذا لأولادك.

فتخبرها .. أنها عاقر.. فترثى لحالها .. وتدعو لها أن يرضيها الله عز وجل.. وكذلك.

من الجيران والمعارف، فلم يرحمها أحد من كلمات الشفقة والعطف تارة وكلمات التشفي والشماتة تارة أخرى، لقد سئمت أسيل من تلك الحياة الخاوية الهزيلة التي تعيشها، لقد سئمت من كلمات الناس المضة ونظراتهم المسمومة، وكأنها هي من حكمت

على نفسها بالعقم، فلم يدعها أحد لشأنها، ولم يدع أحد المُلك للمالك والخَلق للخالق، فدائمًا كانت تُناجي نفسها وتقول.. لقد ابتلاني الله سبحانه وتعالى بذلك الأمر؛ وأنا صابرة وراضية بقضاء الله.. فما دخل الناس في ذلك؟.. وما شأنهم بي. فلو عاش كل أمرئ لشأنه .. لكن الجميع أصبحوا سعداء حتى وإن كانوا مكروبين ومهمومين.. فالعقم ليس سبب حزني.. فقد يكون خيراَ كبيراَ لي.

وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ

.ولكن السبب الحقيقي لحزني.. هو تدخل الناس في شئوني وفي حياتي..

ارحمني يارب من شرور الناس. والهمني الصبر والجلد.

٢

ومع بزوغ فجر جديد، نوت أسيل السفر إلى قريتها؛ فشدت لهذا الأمر مئزرها، وعندما أشرقت الشمس المتوهجة حرَا كانت أسيل على أعتاب بيت شقيقها، فقرعت الباب، ففتح لها شقيقها حيث كان متهيئًا للذهاب إلى عمله، فتكلف ابتسامة باهتة ثم قال.. مرحبَا أختي .. تفضلي.

فسلمت أسيل على أخيها ثم دخلت إلى جوف البيت الريفي الوسيع.. وجلست على أريكة بسيطة، بينما جلس شقيقها قبالتها يستحوذه التوتر والقلق، وكان مستديم النظر في ساعة يده بين آن وآخر. وهو متبرمًا ومتذمراَ. وراح يتأفف في طيات نفسه ويقول. ماذا تريد هذه؟.. وما لذي أتى بها في باكورة الصباح؟!!.. ألا تتمهل لحين ذهابي وإيابي من عملي الكادح؟.. أتظن أنني طوعًا لها وتحت إمرتها؟.. فأطرق بصره.. وقد زوى ما بين حاجبيه.. بينما حملقت أسيل إليه في استعطاف واستجداء بالغ.. ثم قالت بخجل شديد.. أعتذر لك أخي.. يبدو أنني قد عطلتك عن عملك.

فأجاب وهو يتصنع الود ورحابة الصدر.. لا بأس أختي.. فلقد فرحت لقدومك.. ولكن ما سبب هذه الزيارة المفاجئة؟..

_هل تضايقت من ذلك؟

_فقال وهو يتظاهر بالكرم: أبدًا؛ ولكن .وددت لو أن تعلميني بذلك؛ لكي انتظركِ على محطة القطار.. وأقدم على طلب إجازة من عملي؛ حتى يتسنى لي وفادتك باستحسان.

_لا عليك أخي؛ فلقد جئتُ في أمر ضروري وهام.

_ما هو يا عزيزتي؟

_فقالت بتروي وتمهل.. أخي ياسر.. أنت تعلم ظروفي الصعبة.. .

فراحت أسيل تسرد لأخيها وتقص عليها سبب مجيئها إليه بغتة في استرسال وطفقت تشرح له ظروفها المتعنتة والحرجة شرحًا وافيَا؛ حتى توصلت في حديثها إلى كلمة إرثي الشرعي.. ومن هنا تبوغ الدم بياسر، فانطلق سخطه من طواء سجيته كما ينطلق الخيل من عقاله، وصاح غاضبَا هائجًا وقال: ألا ترحمين عجزي وقلة حيلتي.. من أين لي إعطائك إرثك؟!.. ألم تخبريني بهذا الأمر من قبل .. ووعدتكِ أنني سأعطيكِ ميراثك ريثما تتحسن ظروفي المادية، والعملية .. أنسيت أنني وأشقى في عملي الدؤوب الشاق بالمصنع، ولا أتقاضى غير الكفاف..

فقاطعته أسيل في أسى بالغ.. أستمحيكِ عذرًا يا أخي.. أعلم ذلك جيدًا.. ولكني مضطرة إلى المطالبة بميراثي الشرعي .. فأنا في ضيقٍ شديدِ، ومحنة لا يعلم مداها غير الله .. فأنا في أمس الحاجة إلى المال.

فقال: وهو يمسح العرق الذي تفصد على جبينه .. إذن .. ماذا أفعل الآن؟

فأجابت على الفور. بيع البيت..

فنهرها قائلًا: هذا من رابع المستحيلات..

_لا بد لك من بيع البيت؛ حتى نستطيع أن نحيا جميعًا.. فأنت في حاجة إلى المال كي تتزوج .. وأنا في حاجة إليه كي أنجب..

تنهد ياسر ثم استغرق في دوامة من الفكر العميق، بينما جلست أسيل مطرقة لا تريم في انتظار إجابة شافية مثلجة للصدر من أخيها الوحيد، فتململ ياسر في جلسته يمينا ويسار، ناظراَ إلى الأرض تارة، ثم إلى سقف البيت تارة ثم واضعًا راحتيه على جبينه تارة أخرى، وكأنه يبحث عن حل لتلك المشكلة العويصة التي نغصت عليه معيشته، ثم ما لبث أن نهض من جلسته وهرول إلى حجرته دون أن ينبس بأية كلمة أو يرنوا بأية رنوة لشقيقته التي تنتظر بفارغ الصبر.. وبعد قليل عاد ياسر إليها وبحوزته لفافة، ثم زفر وشهق وبسط اللفافة إلى أخته قائلًا: لها بنفس ساخطة وغير راضية .. خذيها..

فقالت بلجلجة.. ما هذه؟

_رد باستياء واشمئزاز.. إنها كل ما أملك. فهذه اللفافة بها مبلغًا لا بأس به من المال. كنت أدخره لسنوات طويلة من راتبي. فلقد

كنت أرغب في الزواج .. ثم ضحك بتهكم واستأنف قائلًا: .. كنت أزعم أن هذا المبلغ سيكون شبكة ومهر العروس المنتظرة.. ولكن، ثم سكت. بينما خيمت غمامة من الكمد والأسى على وجهه الشاحب، فشعرت أسيل بالأسف. ثم نهضت .. وقالت .. تزوج كيفما تريد .. أسعدك الله يا أخي.. احتفظ بنقودك. فأنت أحوج منى بها. أستودعك الله..

وتهيأت أسيل للرحيل .فأستوقفها شقيقها وقال. خذي هذا المبلغ. ولا شأن لك بزواجي.. ولكن شريطة .أن توقعي لي على إيصال يثبت أنك استلمت مني ميراثك الشرعي..

_فقالت بعشم .. كم هذا المبلغ يا أخي.؟

_'إنه خمسون ألفًا

_ولكن ميراثي أضعاف أضعاف هذا المبلغ

_إذن فلتنتظري وتتمهلي وتتريثي سنوات عدة حتى استطيع بيع البيت وشراء لي بيتًا آخر.

_إذ انتظرت أكثر من ذلك .. فالعمر لن يتنظر. وإذا انتظر العمر. فلن ينتظر الزوج.

لم تجد أسيل بدا من استلام المبلغ المتوفر والمتاح، ولم تجد أيضًا مفرًا من توقيع إيصالًا يثبت أنها تقاضت واستلمت إرثها الشرعي

كاملًا، فلقد كانت مضطرة والاضطرار يعصف برصانة واتزان الإنسان، وأيضا محتاجة والحاجة لا ترأف ولا ترحم بنفس صاحبه، وقبل الشقيق أن يأكل جزءاَ كبيراَ من ميراث أخته الوحيدة المنكسرة، فلقد اهتبل الفرصة، واغتنم الظرف القاسي لصالح نفسه الطامعة الشرهة،. فدست أسيل اللفافة في حقيبة يديها. وانفتلت وهي تجرجر أذيال الوجيعة وقلة الحيلة، بينما استلقى ياسر على الأريكة وقد تلألأ وجهه وأسفر واستبشر، فلقد كانت الصفقة مربحة وثمينة وصار البيت الوسيع ملكًا له وحده بلا منازع، يتصرف فيه كيفما يشاء وقتما يحلو ويطيب له ذلك.

آبت أسيل إلى بيتها والبؤس الممض يرافقها، وأخبرت زوجها أنها حصلت على إرثها، فتلقف منها النقود، بعد أن استفسر منها عن عددهم، فأخبرته بما حدث، فوبخها توبيخًا شديدًا، ونعتها بالخيبة والسذاجة والبلاهة والرعونة، ورماها بالجنون والنزق وخفة العقل، وانهال عليها بالتقريع والشجب والتنديد والاستهجان الشديد لفعلها السيء الذميم، فما كان منها إلا أن التزمت الصمت، وتقبلت ثورته المندلعة المتأججة بصدر رحب، فلقد كانت مغلوبة على أمرها، ولا سبيل لها إلا الإقدام على ذلك؛ حتى وإن كان مضيعًا لحقوقها وسالبًا لمستحقاتها الشرعية..

وبعد أن خبت نيران بركان غضب الزوج، جلس وهو يبتلع مجاجه ويلتقط أنفاسه الحارة .ثم قال:

على العموم. الخسران في هذا الأمر هو أنتِ .. وليس أحد غيركِ. دعي هذا المبلغ معي الآن .. ثم اذهبي غدًا إلى البريد وقومي بسحب النقود التي تتدخرينها هناك. ثم نبيع الشبكة. ثم نضيف إليهم المكافاة السنوية لي ولك.. ثم بعد ذلك نعقد العزم .. ونتوكل على الله ونجرى العملية بالمشفى..

_ربنا يصلح الحال.

_اللهم آمين.

٣

نجحت أسيل في تدبير نفقات عملية الحقن المجهري، فأسفر وجهها، وزمل قلبها الفرح والحبور، و وراودها الأمل، وخيم على جأشها البشر، فهرولت إلى زوجها. وهي مجبورة. وقدمت له ما ادخرته وجمعته، فرقص فؤاد على الخاوي، وتلقف منها الأموال بلهفة، ورنا إليها في سعادة غامرة ثم قال. الآن .. نستطيع أن نحيا سعداء. طامعين في كرم الله العلي القدير أن يرزقنا بالذرية الصالحة.

_ونعم بالله .. والآن خذ الأموال و اذهب إلى المشفى فوراً. واتفق مع الطبيب المعالج .. على تحديد موعد العملية..

_وهو كذلك.

خرج على لا يلوى على شيء، قاصدًا المشفى وهو في ذروة الغبطة والسرور، بينما قبعت أسيل بحجرتها وحدها تلازمها الأفكار الحائرة، وتصادقها الهواجس القاسية، وترافقها الأحاسيس القارصة فينسكب اليأس والقنوط في شغاف قلبها، فلقد توجست خيفة من إخفاق العملية وتكهنت بفشلها في طواء ذاتها، ولم يكن ذلك اعتباطًا منها بل كان ركاما من تصريحات الطبيب المعالج لهما بهذا الشأن، فلقد أخبرها هي وزوجها سلفًا، أن فرصة حملها بعد إجراء

العملية ضعيفة جدًا ولا تتعدى العشرين في المائة، أي أن نسبة الفشل ثمانين في المائة، وهي نسبة كبيرة جدًا،

فواست نفسها البائسة وقالت مناجية إياها.. قدرة الله وإرادته فوق كل شيء.. وأكبر من كل الأشياء.

إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ

وفي صباح اليوم الثاني، أعلمت أسيل زوجها أنها ستذهب إلى مديرية التربية والتعليم، كي تقدم طلب إجازة سنة بدون مرتب، حتى تتمكن من إجراء العملية في هدوء، فلقد أخبرها الطبيب أنه عندما يحدث الحمل بمشيئة الله بعد نجاح العملية، سيجعلها ذلك تلازم الفراش ليلًا نهاراً ولا تفارقه حتى لا تفقد الجنين عن طريق الحركة الدائبة، فالحمل في تلك الحالة سيحتاج إلى الراحة التامة والاسترخاء،

فقال لها زوجها .. هل ستتأخرين؟

_ نعم سأتأخر .. لأن المديرية بعيدة عن المنطقة .. وسأركب لها مواصلات عدة. وعندما أفرغ من ذلك .. سأنزل إلى المتجر لشراء بعض المستلزمات والاحتياجات الضرورية للبيت، فربما لن أتمكن من ذلك بعد إجراء العملية..

_كنت أود مرافقتك .. ولكن إدارة المدرسة .اتصلت بي في استدعاء عاجل..

_لا عليك .. سأدبر أموري بحول الله.

وخرجت أسيل من بيتها حثاثًا، فانتوت على أن تنجز مهامها في عجلة ووقت وجيز، وقد كانت الساعة السابعة صباحًا، وبعد أن فعلت كل ما تريده كانت الساعة الثالثة عصرًا، فناجت نفسها لقد تأخرت كثيرًا، فذهبت إلى محلات الأطعمة السريعة وقامت بابتياع بعض الوجبات؛ لأنها لن تتمكن من الطهي، فلقد أزف الوقت، وزوجها سيتضور جوعًا، فعرجت أسيل الدرج بسرعة فائقة وهي تحمل أكياس المشتريات العديدة، وعندما فتحت باب شقتها، كانت الصاعقة.. فشهقت واعتراها الذهول والشده، فوقفت مبهوتة حائرة فترتب على ذلك سقوط الأكياس من يديها لا إراديًا وبلاوعي، وصاحت من فرط عجبها وقالت .. ما الذي حدث؟..

فراحت تركض في الشقة الخاوية من جميع الأثاث والخالية من كافة المفروشات، وكأنها بيت رث بالى قد هجره أصحابه منذ دهورا سحيقة، فلم تصدق ما رأته عينيها وكأنها في حلم مزعج، فهرعت إلى الغرفات لتتفقدها، فألفتها تناظر بقية الشقة، خالية من أثاثها، لا أسرة، ولا مناضد، ولا مقاعد، ولا ستائر، ولا مكاتب، ولا سجاد، فطارت إلى المطبخ فشدهت عندما وجدته هو الآخر خاويا على عروشه، لا ثلاجة ولا فريزر ولا بوتاجاز، ولا أواني ولا أكواب، فلقد كان فارغًا تمامًا من كل الأجهزة والأشياء إلا من بقايا أطعمة وخضروات تناثرت على الأرضية، فصرخت أسيل بلا وعي

وقد جأشت نفسها وانسكب الكمد بقلبها وقالت مخاطبة نفسها .. ما الذي حدث ؟.. هل سرق اللصوص شقتي؟.. ولكن أين على كي يطلع على تلك المأساة؟.. هل مازال حتى الآن بعمله؟.. يارب ارحمني.. فذهبت ثانية إلى غرفة نومها، فلاحظت ملابسها ملقاة على الأرض، والدولاب اختفى هو الآخر من الغرفة مثل باقي الأثاث، ولكنها عمهت في هذا الأمر، فلقد وجدت ثيابها ولم تجد ثياب زوجها وتساءلت في حيرة .. هل سرق اللصوص ثياب على؟.. !!! .. ولم يسرقوا ثيابي ..

فأحدجت بنظرها في كافة الأرجاء .. فاستلمت ورقة بيضاء .. ملقاة على الأرض ومثبتة بحجر حتى لا يطيرها الهواء، فهرولت إليها، فوجدتها رسالة، فأخدتها وقرأت التالي بدموع منهطلة وقلب وجل خافق ..

عزيزتي أسيل .أرجو أن تتفهمي موقفي الحرج جيدًا .. فلقد اخبرنا الطبيب أن فرصة نجاح العملية ضئيل جدًا، ففكرت كثيراَ فأدركت أنه لا جدوى من إجراء العملية، ولا طائل من إجرائها، ولن نحصد منها سوى الضير والخسارة، وفقدان الأموال؛ لذا فلقد قررت التالي.. أولًا

الزواج بأخرى. وأخذ المال كي يتسنى لي تدبير نفقات الزواج من تأجير شقة ودفع مهر وشبكة، وكل تلك الأمور النمطية الفارغة المغالي فيها، أما بخصوص الأثاث فلقد بعتها، وابتاعت بدلًا منه

أثاثًا جديدًا؛ لأن هذا هو طلب العروس، فلقد أبت أن تدخل على أثاث قديم، .

ثانيًا .. أنتِ طالق. وورقة الطلاق ستصلك في أقرب وقت ممكن.

ثالثًا .. لا تدفعي إيجار الشقة .. لأنني قابلت المالك .. ودفعت له الإيجار المتأخر كله .. ورفضت تجديد العقد بسنة أخرى مثلما كنا نفعل عند انتهاء سنة الإيجار..

رابعًا. أعلم أنني فظ ووغد وعتل. ولكن للضرورة أحكام. فلقد آثرت نفسى على كل شيء.. فلقد خشيت أن تنفق الأموال وتضيع سُدى.. اتمنى لكِ السعادة مع زوج آخر أكثر نبلًا وصلاحًا مني..

خامسًا.. لا تبحثي عني كي تأخذي حقك المسلوب.. لأنني سأكون خارج البلاد حيث قد حصلت على فرصة عمل .. فلا تضيعي وقتك في أمور محكوم عليها بالفشل الذريع.

دمتِ بخير.

طليقك النذل.

صدمت أسيل وصعقت فجثمت على الأرض الخاوية واستخرطت في بكاء حاد، فوجف قلبها الضعيف، وترحت نفسها الواهية، فلم تصدق ما فعلها زوجها معها، وكأنها تراه لأول مرة، وكأنه قد تبدل بشخص آخر صفيق وسفيه، غير هذا الذي عاشت معه سنوات

طويلة، والذي كانت تزعم أنه طيب ونبيل، فاكتشفت أنه كان يرتدي قناع الطيبة والصلاح حتى يصل لغرضه القميء ويحقق هدفه الشره،

فلم تنبس بأية كلمة غير .. حسبنا الله ونعم الوكيل..

٤

لململت أسيل أغراضها و جمعت ثيابها المبعثرة، وحزمت حقائبها، وحاولت تضميد جرحها العميق، ومجابهة صدمتها الشديدة، ومواساة سريرتها المعذبة، وتطييب فؤادها المنكسر، والتصدي لفجعتها الكبرى حتى لا تفتك بنفسها الضاوية المستضعفة المغلوبة على أمرها، ففرت إلى قريتها الصغيرة، لعلها تجد هناك عزاءها عن مصابها الجسيم، وعندما وصلت إلى بيت شقيقها، قابلها بوجه عبوس، فسألها بغلظة عن سبب قدومها المباغت، فانسكبت العبرات من مقلتيها كسيل عرم، وراحت تقص على أخيها بقلب منفطر ونفس مضطربة و بكلمات متقطعة متلعثمة ما حدث لها من ظروف وخطوب، فما كان من الشقيق غير أنه ضحك بسخرية وتهكم، وقال بعدم اكتراث بشقائها وحزنها العارم.. تستحقين أكثر من ذلك..

فردت بصوت يخالطه البكاء والنحيب. أستحق أكثر من ذلك. لماذا؟.. هل اجترحت موبقة أو كبيرة في حق أحد ما.

_نعم أنت أخطأت في حق نفسك. لقد سعيت وراء السراب. وتمردت على حياتك. كنت تعلمين أن نسبة نجاح العملية ضعيفة

جدًا .. ومع ذلك ركضت ركض الوحوش. وكان مغبة ذلك .. أنك خسرت كل شيء.. خسرت نقودكِ. وخسرت بيتكِ وزوجكِ.

_لا تقل ذلك .. فكل ما انتويته هو البحث عن سبب يمهدني؛ لنتيجة.. كل ما أردته هو الأخذ بالأسباب.. أما بخصوص زوجي البائد.. فلست حزينة عليه. ولكنى حزينة عن أموالى التي شقيت وكابدت من أجل ادخارها وجمعها. حسبنا الله هو نعم المولى ونعم النصير.

_بلغي الشرطة.

_إنه هاجر خارج البلاد. فلقد ذهبت إلى مدرسته وأعلمني المدير أنه أخذ إجازة بدون مرتب وبادر بالسفر إلى الخارج برفقة زوجته الجديدة.

تسلحت أسيل بالصبر والجلد، وعقدت العزم على استطراد الحياة ومواصلتها رغم صعوبتها وشدتها، فاحتفظت بوثيقة طلاقها في درج مكتبها بعد أن أرسلت إليها عن طرق البريد، وقابلت تعنت أخيها وصعوبة مراسه برحابة صدر وسعة نفس، فتحملت طباعه الحادة وسخريته اللاذعة من حالها الشقي بين الفينة والأخرى، ونهره وزجره إياها كلما زلقها ببصره، الحاد، وتبرمه وتذمره من وجودها معه بالبيت رغم أنها حصلت على إرثها ومعه ما يثبت ذلك فكان دوما يهددها ويتوعدها ويرهبها بطردها من البيت بين أن وآخر،

فتأسر كل ذلك بجأشها ولم تبده أو تظهره له، أو تعقب عليه بأي رد فعل، أو كلمة اعتراض أو تأفف أو امتعاض، فلقد خشيت بأن يطردها أخوها من البيت حقًا، فأين ستلوذ وتلجأ في هذا الحين؟، فتجرعت غصص الغيظ وكظمتها في جوانحها، وتظاهرت بالرضا والهدوء وقطعت أجازتها وآبت وهلة أخرى إلى عملها وقامت بنقل عملها إلى مدرسة بقريتها حتى لا تتجشم عناء المواصلات والسفر البعيد وذات يوم استيقظت أسيل من نومها على أصوات أشخاص يتهامسون ويتخافتون، فخرجت من حجرتها كي تتحسس الأمر، فشاهدت ثلاثة رجال غرباء يرتدون الجلابيب البلدية ويعصبون رؤوسهم بالعمائم البيضاء، ويتوكؤون على الهراوات، غامضين في السمت والهيئة وكأنهم سحرة ومشعوذين ودجالين يترجلون في دهليز البيت الريفي الرحيب برفقة أخيها ياسر ويتجاذبون أطراف الحديث فأصغت إلى كلماتهم وحديثهم الخافت، فسمعت أحدهم يقول لأخيها.. أجزم لك .أن في تلك المنطقة التي نقف فيها مقبرة فرعونية.

_فيرد آخر. نعم كلام صديقي صحيح .إنني أشعر بوجود طاقة خفية روحانية.

_فيقول الثالث. أستشعر أنها مقبرة لإحدى الملكات الفراعنة. وكل محتويات المقبرة من الذهب الخالص.

فبلج وجه ياسر ووقف وابتسم من فرط غبطته ثم قال. هل هذا حقًا؟..

_يقول أحدهم وهو يلوح .. سيتم الحفر .. وستتأكد بنفسك من صدق حديثنا وتوقعاتنا.

_فيتحدث آخر .. ولكن يا بني المقبرة على بعد عميق جدًا من هنا. وسنحتاج إلى عمال كثيرين أقوياء وربما سيتقوض أثاث هذا البيت جراء الحفر الغائر العميق.

فيقول الثالث.. وعندما نوفق ونتوصل إلى المقبرة الكائنة في قيعان تلك الأرض. سنحتاج أيضًا لذبح بقرة حتى يراق الدم على باب المقبرة المغلق عن طريق السحر الأسود حتى نتمكن من فتحه.

فيجيب ياسر وهو مسلوب العقل ومغلف الفؤاد.. كل طلباتكم أوامر. من الغد أن شاء الله .. سأجلب لكم العمال. وسأذهب إلى السوق وأبتاع البقرة .. وبالنسبة لهذا البيت البالي. فيتقوض أو يهدم .فما عاد يهمني في شيء.. فكل شيء يهون من أجل الذهب الخالص والأموال الطائلة ..

_فيجيب أحدهم .. عظيم .. نتفق أولًا على نصيبنا. سنحصل نحن الثلاثة على النصف بينما أنت تحصل على النصف الآخر. فنحن سنرهق أنفسنا كثيراً في التعزيم والتعاويذ لفتح المقبرة والإشراف على الحفر. وتولي مهمة فتح المقبرة . وإخراج محتوياتها. ونحب أن

نعلمك أن تلك مهمة عسيرة وشاقة وهذا أمر خطير جدًا. وقد يلحق بنا الضرر والأذى جراء ذلك.

_فيجيب ياسر بذبذبة وتردد.. ولكن هذا كثير جدًا..

_فيقول أحدهم .. لا تنسى أن المقبرة من الذهب الخالص.. ونصيبك منها سيقدر بملايين الدولارات. ونحن كذلك. وسنقوم بجلب السماسرة الأجانب كي يبتاعوا الآثار في الخفاء وفي سرية تامة.. وسيدفعون لنا الأموال الطائلة والباهظة..

_إذ كان الأمر كذلك. فأخبركم موافقتي..

_فيرد الثلاثة في صوت واحد. فلنبدأ من الغد .على بركة الله.

غادر السحرة البيت، ومضى معهم ياسر، فجأشت نفس أسيل وتحيرت لما سمعته وشاهدته، وناجت نفسها قائلة بضيق شديد .. ماذا سأفعل الآن.. ؟!!

٥

عندما آب ياسر إلى البيت كاشفته أسيل بما سمعت ورأت، وأبلغته اعتراضها الشديد ورفضها التام لما ينتوي على فعله، وحذرته من مغبة هذا العمل الشائن وترجته أن يقلع عن نيته الضالة هذه، ويعدل عن قراره الغاشم بخصوص أعمال الحفر بغاية التنقيب عن الآثار الفرعونية فأمتعض ياسر وتملكه السخط والضجر حيال تدخل شقيقته في شؤونه الخاصة فأرغى وأزبد، وثارت حفيظته، فزجرها أشد الزجر، وأوصاها بضرورة مغادرة البيت والبحث عن سكن آخر من الغد..

فعمهت أسيل وأخذتها الحيرة وضاقت عليها الأرض بما رحبت، وتساءلت.. أين سأذهب الآن ؟.. وليس لدي مأوى غير ذلك؟..

وعندما عسعس الليل هجعت أسيل في مخدعها وهي مترجية في أطواء نفسها، أن يعدل أخوها عن قراره المريج، ويثوب لرشده ولصوابه ويترأف بحالها الشقي، ويرحم نفسها المستضعفة في الأرض، انقضى الليل الطويل وانفلق الإصباح فزقزقت العصافير وخرجت من أوكارها سعيا وراء رزقها، وذهبت خماصًا كي تعود بطانا بحول الله، أما أسيل فلقد استيقظت من وسنها على صلصة فؤوس ومعاول وأصوات حفر غليظة ومزعجة فتملكها الفزع، فنهضت حثيثًا من فراشها، وبادرت بفتح باب حجرتها، والخروج لتر

ما يروع قلبها الوهن، فلقد صدق وعد أخيها، إذا وجدت حوالي خمسة عمال ينهمكون في الحفر في دهليز البيت حتى أحدثوا حفرة لا بأس بها، وياسر يباشر معهم ويشرف عليهم، ويتابعهم، ويترقبهم، فاربد وجه أسيل، وربضت في حجرتها عاجزة لا تقدر على شيء، فطفرت الدموع من موقها من فرط قلة حيلتها ووهنها وبؤسها الشديد..

فسجنت في حجرتها لا تستطيع الخروج حتى إلى المطبخ لتحضر منه ما يقيم أودها، فانقضت ساعات طويلة شاقة فخمصها الجوع، وأضناها الظمأ، فنادت على أخيها، فلم يجيبها، ولم يغثها، وتركها وحدها تصارع الويلات بين أربعة جدران متصدعة، فنادته للمرة الثانية، فلبى نداءها على مضض وهو عابسًا كالحًا. فقالت له بترجي بالغ.. أرجوك أوقف أعمال الحفر.. أشعر أن جدران البيت ستتقوض على رؤوسنا.

فأجاب بلامبالاة وجفاء: لقد أخبرتكِ من قبل أن تغادري البيت..

_لمن سأذهب؟

_هذا ليس شأني؟

ثم تولى عنها وذهب ليباشر العمال الذين أحدثوا حفرة غائرة تقدر بخمسة أمتار، ومكثت أسيل في غرفتها حائرة مضطربة، فراحت ترنو من النافذة لتسرى قليلًا عن نفسها القلقة الضاجرة، وبغتة،

تساقطت وتناثرت الأغبرة والأتربة من السقف، وشعرت بزلزلة شديدة فخشيت أن يهدم البيت جراء الحفر العميق والتنقيب، فهمت بجمع ثيابها وأشياءها، وارتدت عباءة سوداء وطرحة سواء، وحملت حقائبها وانفتلت من البيت على مرأى ومسمع من أخيها الذي أعرض عنها وتجاهل وجودها، بل تنفس الصعداء انتاش واغتبط في بواطن نفسه لمغادرتها البيت، فلم يمهلها أو يستفسر منها عن المكان الذي ستظعن فيه وتأوي به، وواصل إشرافه على أعمال الحفر وكأنه لم ير شيئًا يسترعي انتباهه.

دلفت أسيل في الشوارع والأزقة وقلة الحيلة تلاحقها، فقدحت زناد فكرها فتذكرت عمها سلمان، فولت وجهها شطره على الفور، وعندما توصلت إلى بيته دقت الباب بيد مرتعشة، ففتحت لها زوجة عمها، فتكلفت الابتسامة وقالت برياء. أسيل .. مرحبَا . لقد اشتاقت إلى رؤيتك .. تفضلي..

فدخلت أسيل وهي تعز عليها نفسها المنكسرة البائسة فأجلستها زوجة العم في حجرة الضيوف، بينما ذهبت إلى زوجها لتيقظه من نومه العميق،

فجلست أسيل مطرقة واجمة تصارعها الهموم ويناوشها العجز ويحدق بها سوء الحال. وبعد هنيئة جاءت إليها زوجة العم بآنية الشاي مقدمة على صينة، ثم قدمتها إليها وهي تقول لها .. مرحبَا ..

مرحبًا .. تفضلي الشاي يا عزيزتي.. لقد أخبرت عمك .. وسيحضر بعد قليل.. كيف حالكِ يا بنيتي؟

_فقالت بحزن دفين .. الحمد لله..

فرأتها زوجة العم ببصرها الحاد إلى حقائب أسيل فجافت لرؤية ذلك ثم قالت: هل أنتِ بخير؟

_فأجابت بكل إقدام.. لقد لجأت إليكم من ضيقي الشديد وقلة حيلتي. فلقد تقوض البيت وتصدعت جدرانه وهو على شفا السقوط.

فصكت زوجة العم وجهها ثم قالت. كيف حدث ذلك؟.. إنه كان بحالة جيدة؟

_ فأجابت بمواربة.. كان ذلك بفعل المياه الجوفية. فأنتِ تعلمين أن البيت كائنا بجانب الغيطان والأراضي الزراعية.

_لا حول ولا قوة إلا بالله. كان الله بعونكم.

_ فقالت بخجل بالغ: والآن أطمع في كرمكم .. بأن أقيم عندكم لبعض الوقت ريثما نعثر على سكن مناسب.. فأخي سيقيم عند أحد أصدقائه.. أما أنا .. ومن هنا ولج العم الحجرة فتوقفت أسيل عن الحديث.

فرحب العم سلمان بها بوجه بش بهش واستقبل زيارتها بحفاوة كبيرة وترحاب شديد، بينما عبست زوجة العم وبسرت وعقدت حاجبيها، ولوت شفتيها، والتزمت الصمت..

٦

اعترضت زوجة العم على إقامة أسيل لديهم ونفرت بشدة من هذا الأمر، ولكن العم عندما أعلمها أن أسيل تتقاضى راتبَا مجزيًا ولا بأس به، وبالتأكيد عندما تمكث في بيتهما سيجعلها ذلك أن تشاطرهما في نفقات البيت، وحتما ستساهم معهما في المعيشة التي أصبحت صعبة وباهظة التكاليف في تلك الآونة، وأيضًا ستقوم بكافة مهام المنزل الشاقة، فطمئنت نفسها ورضيت وأقنت، وأصبحت محبة لها وودودة معها..

أما أسيل فلقد عاشت معهما في هدوء وكانت راضية مرضية باقتسام راتبها، فكانت ترفدهما نصفه وتحتفظ بالنصف الآخر لنفسها، وكانت تكد وتشقى في أعمال البيت من غسل وتوضيب وكنس وطهي وتنظيف .. وغيرها .. وكأنها خادمة لديهما، فأغضت عينا على قذى. وأسرت كل ذلك في نفسها، وتحلت بالصبر الجميل، ولكن زوجة العم الذي يغمر الطمع فؤادها، استكثرت عليها النصف الآخر من راتبها .. فتجهمت في وجه أسيل وغدت غليظة معها في المعاملة حادة في التصرفات والطباع فثابرت أسيل وبثت حزنها وشكاتها إلى الله.. فلم تنيا زوجة العم عن فظاظتها وجفائها وحدتها معها، فلاحظ العم ذلك، فثرب زوجته وقال لها: كفى .. أيتها المرأة.. أحسني خلقك قليلًا مع ابنة أخي..

_فأجابت وقد حمى أنفها.. ماذا أفعل هل أقبل كل يوم يديها حتى ترضى..

_لا .ولكن هناك شيء اسمه اللين .المرونة.. الرفق

_لا أعرف تلك الأشياء.

_ماذا تريدين منها بالضبط؟

_اريد راتبها بأكمله.

_لا تكوني فظة أكثر من ذلك..

_إذن .. فأنا لا أريدها معي في بيتي.

_اتقي الله..

_ابحث لها عن سكن آخر.

_إنها تؤنس وحدتك بعد زواج بناتك جميعهن. وتقوم بمهام البيت بدلًا منك. فأنتِ الآن أصبحت تشعرين بالدعة والراحة التامة والارتخاء.. لا تكندي النعمة وتتبطري عليها.

_اطلب منها أن ترفدنا راتبها كله .. فربما توافق.

_إنه ضيم وجور وافتراء.

_لقد قلت كل ما عندي.. ولن اتحدث أكثر من ذلك.

لم يتمكن سلمان من كبح جماح أطماع زوجته ولا تحسين خلقها السيء، فأعرض عنها وتركها لشأنها، أما هي فلم يبرح الطمع يتراقص في فؤادها ويتملك جوارحها، ويأخذها إلى أودية من الثراء والترف والدنيا الدانئة، فأختلق لها خيالها السقيم صوراً من الخفض، والرغد ففكرت وتخيلت وتصورت. مع نفسها.. وتحدثت .. قائلة. إنها تتقاضى مكافأة. لماذا لا أحظى بها. وأبتاع بقيمتها الذهب.. وعندما ترفدني راتبها مستهل كل شهر .. سأدخره ولن أنفقه.. وسأبتاع لنفسي الفقيرة المعدمة الخواتم الذهبية والغوايش والأقراط. إنني لا أمتلك أي منها. فزوجي.. سامحه الله يحرمني من جنى الدنيا. فكلما نظرت لنساء القرية الدميمات وهن يرتدين الذهب النفيس. شعرت بالحزن والكمد. فلست أقل منهن شيئًا. لماذا لا أرتدي الذهب مثلهن؟.. وأعيش في رغد وعيش ليان..

.. هل حكم على بالشظف والتقشف وعسر الحال والخصاصة مدى حياتي الشقية؟!!..

ففاتحت أسيل في هذا الأمر دون خجل أو تردد، فبهتت أسيل وزمهرت عيناها جراء طمع زوجة عمها فقالت لها وقد تملكها الغضب.. وماذا عني؟.. ماذا سأفعل بعد ذلك .. هل سأتسول في حواري القرية؟

_فأجابت بعنف شديد: تتسولين؟!!!.. إنك تمكثين لدنيا وتأكلين وتشربين وتنامين في فراش وطئ.. فما الذي ينقصك؟. هل تضنين

علينا براتبك ونحن في حاجة إليه.. فمصاريف البيت باهظة. فما الضير إذا أغدقت علينا قليلًا حتى نستطيع العيش مثل سائر خلق الله.

_لقد أغدقت عليكما كثيراَ وليس قليلًا.. ولا تنس أنني أيضًا لدى متطلبات واحتياجات .. مثل شراء حقائب وأحذية وملابس؛ لأن عملي يتطلب المظهر الحسن حتى لا يتهكم على التلاميذ ..

_فأجابت بشجب. كنت أعلم أنك سترفضين طلبي.. إنكِ سيدة ناكرة للجميل والمعروف..

ومن هنا عاد العم من الغيظ وولج البيت فسمع الحوار الشائك من آخره فأمتعض؛ لذلك وغضب وصاح مقاطعًا زوجته بزجر شديد.. كفى .. ألم احذركِ من ذلك من ذي قبل. هيا اتركيها لشأنها.

فنظرت زوجته إليه نظرة شزراء وانفتلت إلى حجرتها بينما دنا العم من أسيل وقال لها بلطف وعطف.. لا تحفلي يا عزيزتي.. إنها دوما كذلك.. مندفعة ومتهورة وهوجاء

فأطرقت أسيل ساكنة وانسكبت دموعها على وجنتيها..

٧

أرعدت زوجة العم وأبرقت لأسيل وضمرت في نفسها كل الثبور لها ولبثت تتحين الفرصة السانحة للنيل منها و وباتت تنتظر الوقت المناسب كي تنفث جام غضبها ونقمتها عليها، وتخرجها من البيت بلا رجعة وذات يوم من الأيام المتعاقبة كقطار سريع لا يتمهل ولا يتوقف أبدًا، عاد العم من الخارج بوجه مسفر مستبشر ثم نادى على أسيل والتي كانت مستغرقة في مهام البيت التي لا تنفد ولا تنتهي، فذهبت إليه على عجل ثم قالت بنبرة هادئة.. نعم يا عمي

_فأجاب وهو ضاحكًا ومستنير الوجه.. لدى لك عريس يا بنيتي.

_فشحب وجه أسيل ووجل قلبها وارتجفت اطرافها ثم قالت بلجلجة. ماذا؟

_لقد سمعتي جيدًا.. فما رأيك يا عزيزتي.

_ فغمغمت.. لا أريد الزواج في الوقت الحالي.

فلم يتبين العم سلمان من قولها. .. وشرع في سرد مواصفات العريس المنتظر في استرسال. واستفاضة . إنه تاجر مواشى كبير ومعروف في قريتنا وكافة القرى المجاورة.. ثرى جدًا.. مستور الحال.. ولكن .. حتى أكون شفافًا وصادقًا.. إنه يكبرك بحوالي ثلاثين

عامًا .. ولكن الرجل لا يعيبه شيء.. طالما كان مقتدرًا وميسور الحال ودخله وفير وماله جم.. ثم ابتلع مجاجه .. وما لبث أن استأنف وقال.. ما رأيك يا بنيتي؟

تمورت المخاوف في جأش أسيل وجاشت الظنون والهواجس بعقلها اللاغب من طيلة التفكير العميق.. ثم قالت بإصرار وإباء.. عمي لا أريد أن اتزوج.. فتجربتي الأولى كانت قاسية وأليمة. ولا أريد أن أخوض تجربة جديدة ريثما تتحسن حالتي النفسية وتلتئم جروحي المبرحة..

فقاطعها العم توا وهو غير راضي عن ردة فعلها وانطباعها.. ثم قال بنهى وزجر.. إياك .أن تتفوهي بهذا الهراء مرة أخرى.. فأي فتاة أو سيدة لابد أن تتزوج.. ولا تنسى أنكِ مطلقة ويتيمة ووحيدة. وكلنا نطلب لكِ الستر في بيت زوجكِ.

_كمدت أسيل لتعقيب عمها فعله الغليظ ثم قالت باستعطاف بالغ.. أرجوك يا عمي.. اعفيني من تلك الزيجة. وإذ كان من النكاح بُدًا .. فهذا الرجل غير كفء لي ولا يناسبني على الإطلاق. فتمهل قليلًا حتى يرزقني الله بالزوج الصالح المناسب.

_فقال ضاجرًا.. نتمهل حتى متى؟.. ثم تحدث بنبرة هادئة وكأنه يريد إقناعها.. بنيتى.. نحن نعيش في قرية لا تعرف الرحمة ولا الهوادة. قرية كثيرة الكلام قليلة الفعل. ليس لديهم أي وسيلة

تزجية لوقت الفراغ غير الغيبة والنميمة والقيل والقال. ودائمًا تكون المطلقة لها نصيب الأسد من الاختلافات والشائعات والافتراءات.. فلماذا لا نجد ألسنتهم التي يسلقوننا بها؟.. . ونرضى بهذا العريس. ونتمم الزيجة على بركة الله.

_فأجابت باستنكار شديد.. . إنه تاجر مواشي.. يعني أمي وجاهل. وأنا متعلمة ومثقفة ومدرسة محترمة. فلن يكون بيننا تفاهم ولا تكافؤ على الإطلاق.

_دعك من تلك الكلمات التي تسطر بالكتب فحسب.. وعيشي الواقع والحقيقة. لن أجادلك أكثر من ذلك فلقد كللت من طيلة النقاش والجدال. أحب أن أعلمك أن الرجل سيحضر إلينا اليوم بعد صلاة العشاء بمشيئة الله تعالى.. فتهيئي لهذا اللقاء. وارتدي أفضل حلتك وثيابك حتى تنالي الرضا والاستحسان والقبول منه.

_فعقبت بتذمر شديد.. اتمنى في قرارة نفسى أن يفر ويهرب عندما يراني..

وفي أديم الليل جلب العم العريس المنتظر إلى البيت فلقد صلى معه العشاء بالمسجد، واصطحابه على الفور عندما فرغا من الصلاة، فأجلسه في حجرة الضيوف وذهب إلى أسيل ليتقصى خبرها، فألفاها ترتعد وترتجف وتبكي بحرقة، فحاول تطييب نفسها المرتاعة وتهدئتها، واقناعها بضرورة مقابلة العريس .. ويحصل بعدها ما

يحصل، أما زوجة العم، فلقد كان التشفي يستحوذها، فاستخفت بأسيل وسخرت منها وقالت.. اطمئني فلن يوافق. وسيفر بمجرد رؤيته لسمتك الدميم.

فنهرها زوجها وقال لها بشجب. اخرسي أيتها المرأة .. إنها جميلة مثل القمر. وكفاك لغوا.. واغربي الآن عن وجهى.

فأجابت أسيل. وهي تكفكف دموعها.. وقالت بترجي وتمنى. ليته يفر يا زوجة عمي عندما يراني.. فإن فر ورفض .. فسوف أهديك بهدية نفيسة.

فصاح العم سلمان. كفى مهاترات.. وهيا انهضي معي الآن إلى حجرة الضيوف. فالرجل ينتظر بفارغ الصبر.

فحملت أسيل صينية المشروبات وهي مكرهة ومرغمة وكاسفة البال وسارت بأقدام مضطربة ومرتجفة صوب حجرة الضيوف وهي تتمنى في طياتها في تلك اللحظة الحرجة أن تنشق الأرض وتبتلعها على الفور بينما سبقها سلمان إلى هناك برفقة زوجته..

٨

غشى وجه أسيل قطعًا من الليل المظلم عندما رأت العريس حيث وجدته طاعنًا في السن قد أشعل الشيب رأسه دميما يرتدى ثياب مهلهلة بالية خلقة، وقد خلع نعلين متمزقين متسخين بروث المواشي على وصيد حجرة الضيوف فأمضها ذلك واستشعرت نفوراً شديد وودت لو أن تركض وتفر خارج الحجرة بل خارج البيت بل خارج القرية بل خارج القطر كله، ولكن خشيتها من غضبة عمها احجمتها وصدتها عن ذلك، فتكلفت الهدوء وتظاهرت بالرضا ريثما ينتهى هذا اللقاء الجاشم، أما العريس فلقد كان له انطباعًا آخر مغايراَ تماماً لانطباع العروس، حيث قد راقت له كثيراَ.

وأبهرته بشبابها وحسن سمتها ودماثة خلقها وهدوء طباعها، فأشرق وجهه برؤيتها، وانشرح صدره واطمئن قلبه، فشرع يتحدث في أمور الزيجة من شبكة ومهر وتجهيزات فأخبر عمها أنه يريدها فقط بحقيبة ثيابها. ولا يريد أكثر من ذلك.

فرد العم سلمان وقد بلج وجهه وأبشر؛ لأن العروس قد نالت استحسان وقبول العريس.. نحن طوع يديكِ.

فتذمرت أسيل وسخطت فلم يرق لها هذا الحديث الشائك، ولكنها التزمت الصمت ولم تنبس بأية كلمة واستغرقت في إطراقه طويلة

والتجهم والعبوس يغشى محياها أما زوجة العم فلقد استلحمت نفور أسيل من هيئة وسمت العريس فأسعدها ذلك وأخذتها الشماتة وخيم على ذاتها التشفي للتعاسة وخيبة الأمل التي داهمت غريمتها،

فقال العريس بتودد وتملق.. لدى بيت كبير بحديقة.. ولدى أيضًا حظيرة حيوانات هائلة مرفقة بالبيت. أما أولادي فلقد تزوجوا جميعهم وقطنوا بعيدًا عني. ولقد توفيت زوجتي منذ عام .. فأزمعت أن اتزوج بأخرى حتى أجد من يؤنس وحدتي ويرعي مهام المنزل ويداويني عندما أصاب بوعكة صحية. ولن أجد أفضل من الأستاذة ابنتكم .. ما اسم ربة الصون والعفاف.

فأجاب العم توا.. أسيل

_عاشت الأسماء.. يا له من اسم جميل.

فاحتدم نفور أسيل من العريس وقالت في طواء نفسها.. أمي.. جاهل .. دميم.. عجوز.. لا يعتني بمظهره ولا نظافته الشخصية .. لا يريد زوجة. بل يريد جارية .. خادمة .. ممرضة.. سامحك الله يا عمي. على ما تفعله معي.

فرمق العم سلمان أسيل وقال لها: وهو يتصنع اللين .. عزيزتي .. الحاج عطوة. رجل طيب ودود كريم..

ولقد تشرفنا بقدومه.

فعقبت أسيل بنظرة شزراء وأطرقت ساكنة بينما استطرد العم حديثه وقال. إنها خجولة جدا وذات حياء.

فأجاب عطوة.. أنعم وأكرم. نعم الأخلاق ونعم التربية.

وانتهى اللقاء الجشيم وغادر التاجر عطوة البيت وهو يستجدي الرضا والقبول والموافقة، بينما أبت أسيل وامتنعت بشدة عن قبول تلك الزيجة البغيضة وكانت أكثر تعنتا وصلابة على غير دأبها، فأصرت على موقفها واستنكفت أن تقترن برجل أمي جاهل غير كفء لها، وأعلمت عمها أنها متعلمة ومثقفة ومازالت في مرحلة الشباب ولا يناسبها هذا الرجل على الإطلاق، فاستشاط العم غضبَا وسخطاً وأرعد لها وأبرق.. وتوعدها .. إن لم تقبل تلك الزيجة. فعليها فوراً أن تغادر البيت من الغد وتبحث عن سكن آخر.

فزهر محيا زوجة العم فلقد تحقق ما تتمناه. وناجت نفسها قائلة بفرح وتشفي بالغًا.. فلتذهبي من هنا بلا رجعة .فلقد كنت ضنينة في إنفاقك علينا و فظة في أخلاقك معنا..

ففالت أسيل برجاء وتملق لعمها.. بالله عليك يا عمي.. ارحمني يرحمك الله .. فأنا سيدة وحيدة ولا حول لي ولا قوة.. ولن أستطيع الزواج من هذا العجوز. ولو طردتني من بيتك .. فأين سأذهب.؟.. فلقد ضاقت على الأرض بما رحبت.. ترأف بنفس بائسة مثلى نفسي.. وستأخذ أجرَا وثوابًا عظيمًا من الله.

_فأجاب العم وهو أكثر عنادًا وتشبسًا بقراره.. لن تجدي زوجًا آخر غير ذلك.

فقاطعته على الفور .. لا أريد الزواج .. سأعيش في معية الله غير متبرجة بزينة. زاهدة للدنيا وكل متاعها الفاني..

_لن يتركك الناس لشأنك. سيهمزونك ويلمزونك..

_ويل لكل همزة لمزة. سأفوض أمر لخالقي.

_كلامك جميل .. ولكن الواقع أليم. سأمهلك برهة من الوقت كي تعيد التفكير في هذا الأمر .. ولن أبلغ ردًا الآن إلى عطوة. سأنتظر قليلًا. فربما يهديك الله وتوافقين..

٩

وفي صباح اليوم التالي ذهبت أسيل إلى عملها بالمدرسة الابتدائية كدأبها وبعد خروجها من بيت عمها ببضعة دقائق جاء عطوة واللهفة تتملكه، فقابله العم بحفاوة وترحاب شديد، بينما قد عمه وتحير في الأمر في أطواء سجيته إذ ناجي نفسه وهو حائرٌ .. ماذا سأخبره؟.. !!!.هل سأعلمه برفض أسيل الشديد له؟..

فقدمت له زوجة العم الشاي وذرتهما لشأنهما، بينما ارتشف عطوة الشاي بصوت غليظ ثم قال وهو شغوفًا. ومتلهفًا.. أخبرني فورًا. ما رأي أسيل في تلك الزيجة.

فاستشعر العم اضطرابًا وحيرة وقلقًا، ثم قال وهو مذبذبًا ومهزوزًا.. لا أدري.

_لا أفهم .. هل وافقت .. أم رفضت.

فقال العم بإقدام وبشجاعة دون أية مقدمات. لقد رفضت رفضًا باتًا مطلقًا ..

فغشت وجه عطوة فترة ثم قال بكمد وأسى.. يا خسارة. كنتُ سأكون لها نعم الزوج الطيب الحنون

فأجاب العم.. . الزواج قسمة ونصيب.

فأطرق عطوة ساكناً هنيهة وكأنه يبحث في لبه عن فكرة ثاقبة تمكنه من نيل مطلبه و تحقيق أمنيته ورجاءه.. فلم لبث أن نبس وقد رواده الأمل من جديد.. وقد أزمع على أن يعزف على أوتار الحاجة والعوز التي تعتري وتحيق بالعم تلك الأيام .. فقال وهو معتدًا بنفسه.. لن أفقد الأمل. وإن استطعت أن تقنع أسيل بأمر النكاح .فسوف أهديك بهدية نفيسة.. سأهديك ببقرتين كبيرتين في الحجم سمينتين لك وحدك.

فأسفر وجه العم وتلألأ بشرَا وحبوراً ثم قال على الفور. حقًا..

_تعطيني أسيل كزوجة أعطيك البقرتين كهدية .. وأحب أن أعلمك أنني لا أريدها إلا بحقيبة ثيابها فحسب. وإن شئت أحضرت لها الثياب أيضًا

فأجاب العم وهو محبور.. اعتبرها زوجتك من الآن.

وبعد أن انفتل عطوة جلست زوجة العم برفقة زوجها وقد تجسست عليهما وأصغت إلى الحوار بأكمله فراحت تحث زوجها وتحضه على ضرورة إرغام أسيل على تلك الزيجة، فلم يجيبها العم حيث قد أطرق وشرد في خياله الخصب وراح يحلم ويتصور ويناجى نفسه ويقول.. سأقوم ببيع البقرتين السمينتين وابتاع بثمنهما غيطًا. وأضمه إلى غيطي الصغير .. وسأصبح في هذا الحين من أصحاب الأراضي والغيطان في تلك القرية البائسة. أما زوجة

العم فلقد استشعرت بشرود زوجها فأطرقت هي الأخرى وروادتها الأحلام المبهجة السارة. فتخيلت نفسها وهي تبيع البقرتين وتبتاع بثمنهما غوايش وخواتم وسلاسل وأقراط، وتتزين بهم وتخرج على نساء القرية في زهو وكبرياء وصلف وتتحدث إليهم في عجرفة وتفاخر، وتسير في شوارع القرية وهي شامخة بأنفها رافلة في ثيابها. فاستفاقت بغتة على صوت زوجها الجهوري الأجش. وهو يقول لها.. انهضي جهزي لي الغداء فلقد خمصني الجوع.

وعندما آبت أسيل إلى البيت أعلمها العم بقراره النهائي المزمع التعسفي، فأبت بشدة ونفرت أشد النفور، وأصرت على موقفها، وتمسكت برأيها المتصلب، فحاول العم زجرها وتهديدها ووعيدها وترويعها بطردها من البيت فلم يحقق ذلك أية نتيجة مثمرة، ولم يجدي نفعًا مع إصرار أسيل وأنفتها وإباءها الشديد وذرته واعتكفت بحجرتها، أما الزوجة العم فلم يروق لها ذلك، فأنتوت على الكيد لأسيل والإفك عليها، وتدبير لها مكيدة محبكة وحيلة خبيثة كخبائث قلبها المريض وشرور نفسها الطالحة، فهرولت إلى حجرة أسيل ودفعت الباب بقسوة وعنف بالغ وبربرية شديدة، فحاق بأسيل الفزع والروع فقالت وهي متوجسة خيفة من جبروتها.. ما الخطب؟

فقالت زوجة العم بمكر ودهاء وكيد وافتراء.. لقد علمت سبب امتناعك عن الزواج بعطوة.. فلقد شاهدتك خلسة تخرجين من

بيت زميل لك بالمدرسة اسمه الأستاذ مصطفى مدرس اللغة الإنجليزية. أليس كذلك يا مربية الأجيال.

فتملكت أسيل الصدمة الممتزجة بالمفاجأة. ثم قالت.. لا تفتري على الله .. اتقي الله .. وتأكدي من صدق الكلام الخطير الذي تتفوهين به..

_فقالت بأفك وافتراء.. لدى شهود. فلقد شاهد ذلك معي امرأتان من نسوة القرية..

_ فقالت والدمع ينهمر من مقلتيها.. اتقي الله .ولا تقذفي المحصنات.

_فقالت وهي غير مكترثة بكلامها.. سأستر عليك .. ولن أخبر عمك بجريرتك.. في حالة واحدة فقط. إذا وأفقتي على عطوة بعل لك..

_فقالت بانفعال بالغ.. كاذبة.. لا تخشين الله .. اتبعني دينك بدنيتك الفانية.. افعلي ما شئت فلن أرغم على الزواج بشخص لا أريده. فهذا ليس في الشرع ولا في الدين.. فالقبول والإيجاب هو شرط الزواج الصحيح غير ذلك فسيكون زواجًا باطلًا.. افعلي ما شئتِ يا زوجة يا عمي فلن أقول غير. فوضت أمري إلى الله .. وحسبي الله وكفى.

فكادت زوجة العم أن تتميز من الغيظ فجرضت على ريقها، وأضمرت كل الويل والضيم لأسيل ومكثت تتحين اللحظة الحاسمة.

فكانت لديها صديقتان صنوها في الشر والخبث والمكر وحب المال وجمعه على أي حال سواء أكان ذلك بطريقة مشروعة أم غير مشروعة، فهرعت إليهن وقصت عليهن الحكاية بأكملها، ووعدتهن أنها ستغدق عليهن وترفدهن حفنة من النقود كمكافأة، عندما تحصل على البقرتين وتبيعهما، وطلبت منهن أن يذهبن إلى زوجها ويختلقن له واقعة رؤية أسيل، وهي تتردد على بيت المدرس زميلها بين حين وآخر في الخفاء، فرحبن المرأتان بالفكرة الخبيثة المسمومة، فلقد أغرتهن زوجة العم بالمال اللبد، فهرولن إلى العم، واخبرنه كذبًا وبهتانًا وإفكًا بما أملته عليهن زوجة العم، فثارت حفيظة العم وأرغى وأزيد وأخذته الحمية المتعصبة الشديدة، واقتحم على أسيل غرفتها وأعلمها بالموبقة التي سمعها، فأنكرت أسيل بشدة، وأقسمت لعمها على المصحف الشريف أنها بريئة وعفيفة ونقية وتقية وتخاف الله وتراعيه في تصرفاتها وأفعالها،

فهدأ روع العم قليلاً .. ثم قال. إذ كنتِ فعلًا بريئة وعفيفة وشريفة .فأقبلي الزواج من عطوة على الفور.

_ يعلم الله أنني أشرف امرأة في تلك القرية.. ولن أتزوج عطوة أبدًا. وهذا ردي النهائي والأخير. ولن أقول شيئًا بعد ذلك.

_فقال العم بجفاء وفظاظة. فلتجمعي ثيابك وأشياءك وتغادرين بيتي في التو. وهذا أيضًا قراري النهائي والأخير .. ولن أقول شيئًا بعد ذلك..

١٠

تحيرت أسيل وعمهت، واجتاحت سجيتها الهموم الجاشمة، ففرت إلى الله وتضرعت إليها أن يرحم ضعفها وهوانها وقلة حيلتها، وأن يفرج كربتها، ويجعل لها مخرجًا من تلك البأساء التي طوقتها، فقصت لصديقة لها بالمدرسة عما تكابده من خطوب، فأوعزت إليها الصديقة أن تترك بيت عمها، وتأجر شقة بالقرية وتسكن بها وحدها، وتحيا في هدوء وراحة ودعة، بعيدًا عن تعسف عمها وخبث ومكر زوجته، ودلتها على رجل يأجر شقق بالقرية، فحزمت أسيل أمتعتها، وغادرت بيت عمها دون أن تنبس بأية كلمة وداع لأحد، فخرجت في غياب عمها وفي وجود زوجته والتي تهللت أسارير وجهها لهذا الحدث السعيد، ولم تكتف بالفرحة التي غمرت نفسها الخبيثة بل انهالت بوابل من الزغاريد المزعجة والتي تنم عن كم هائل من السرور والابتهاج الممتزج بالتشفي، أما أسيل فلقد أغضبها ذلك كثيرًا فتجرعت غصص الغيظ، وأمسكت غضبها على هون، واكتفت بنظرة شاجبة لأئمة إلى زوجة عمها ذات الكيد العظيم ثم تمتمت حسبنا الله ونعم الوكيل.

استأجرت أسيل الشقة بكل يسر وسلاسة وكانت في الطابق الثاني، حيث كان البيت مكون من ثلاثة طوابق، الطابق الأول يقطن به آل البيت من رب الأسرة ماجد وزوجته وبنتان في ميعة الشباب وشاب دارج يناهز عمره الثامنة عشر أما الطابق الثالث فلقد كان خاليًا وغير مأهول بالسكان، فزعمت أسيل أنها ستجد الراحة والسكينة في هذا البيت الهادئ، حيث قد استقبلها مالكه ماجد بحفاوة وأحسن ضيافتها، وأكرمها في الإيجار الزهيد، ولقد رحبن بها البنات وأمهن أشد الترحيب، وأعربن عن سعادتهن البالغة لقدومها إليهن وسكنها في بيتهن، أما ربة البيت فلقد باحت لها أنها أحبتها في الله كما لو كانت ابنة ثالثة لها.

كل ذلك جعل السكينة والطمأنينة تسكنا في جأش أسيل وتغمره فهجعت هانئة آمنة في مخدعها،

وهي تقول الحمد لله الذي انقذني من شرور عمى وزوجته الداهية.

وفي مستهل الصباح ذهبت أسيل إلى مدرستها، وعندما فرغت من حصصها، وانتهى الدوام فعلمت من زميلاتها أن الصراف قد أحضر رواتب الموظفين، فسعدت وغبطت، وطارت إليه وتقاضت راتبها ثم اقتطعت جزءاً منه كي تدفعه إيجار شهر مقدم، وعندما ثابت إلى البيت، هرولت إلى المالك ماجد حيث كان جالسا في الصالة برفقة زوجته وابنتيه وولده، فأقرأتهم السلام، وأخرجت النقود من حقيبتها ودفعت لهم الإيجار، فسعد الجميع وتلقفه منها ماجد

وهو متظاهر بالترفع والتعزز.. قائلًا: لها .. لو كنتِ بحاجة إليه احتفظي به حتى يُقضى الشهر.

فأجابت .. لا بأس. الآن أفضل من لاحقًا..

فادخرت أسيل بقية راتبها في درج المكتب حتى تنفق منه على احتياجاتها ومتطلباتها، وفي اليوم التالي تسلل الشاب ابن مالك البيت خلسة إلى الطابق الثاني بعد ذهاب أسيل إلى عملها وكان بحوزته نسخة من المفتاح فقام بفتح الباب برفق وتؤدة حتى لا يلاحظه أحد فيكتشف أمره، وانخرط في البحث والتفتيش عن النقود التي سلبت بريقه عقله عندما رمقها وهي في حقيبة صاحبتها، حتى قلب الشقة رأسًا على عقب وكل ومل من طيلة البحث وعندما أيس من العثور على مطلبه، رنا إلى المكتب فهرع إليه وفتح درجه، فأسفر وجهه لأنه وجد مبتغاه وما يصبو إليه، وفي تلك الأثناء عادت أسيل من عملها باكرًا حيث كانت مرهقة ومجهدة فحصلت على إذن ساعتين وانصرفت من المدرسة، وعندما عرجت الدرج سمعت جلبة ودبيبا يصدر من شقتها، فأوجف قلبها وتعالت دقاته، وتسمرت مكانها على المصعد لتبهت برؤية الشاب ابن صاحب البيت وهو يخرج من شقتها، فجاف هو الآخر عندما شاهدها فركض حثحاثا على الدرج ولم يحدثها بأية كلمة حيث قد قالت له باندفاع .. ماذا كنت تفعل في شقتي .. فلم يجيبها وفر خارج البيت..

فاكتشفت أسيل السبب وراء دخول هذا الشاب شقتها، فترحت واكفهر وجهها وقالت بحيرة..

كيف سأنفق على نفسى بعد أن سرق هذا الشاب الطائش كل ما أملكه من نقود..

١١

تبوغ الدم بأسيل، وتملكها الغضب الشديد، فاتجهت إلى مالك البيت على الفور وقصت عليه ما حدث وما رأت فما كان منه إلا أن جاشت مراجله هو وزوجته وبناته بينما كان الشاب السارق بمنأى عنهم حيث كان مازال بالخارج بعد أن فعل فعلته، فقال لها بزجر بالغ.. كيف تفترين على ولدي الصالح الخلوق بهذا الافتراء الشنيع؟..

فقاطعته زوجته وقد أقحمت نفسها في الجدال الملتهب.. اذهبي يا هذه .. وابحثي جيداً عن نقودك.. وتأكدي قبل أن ترمي الناس بالأباطيل.

فأجابت أسيل بتهتهة من فرط الخشية من الكثرة التي أحدقت بها فغلبتها وهي على حق مبين.. فقالت. لقد رأيته بأم عيني.

_قال المالك وهو يجز على أنيابه من فرط الغيظ والغضب.. كاذبة. كاذبة..

_فقالت إحدى البنات. إن أخي نعم الشاب الطيب الملتزم. وتهمتك له مختلقة وباطلة.

_فقالت زوجة المالك.. لا نريدك في بيتنا أيتها السيدة. هيا اجمعي حاجاتك وأشياءك وغادري فوراً. وخذي الإيجار الذي دفعتيه لنا. ثم ذهبت إلى الداخل وأحضرت نقود الإيجار وأعطته لها على .. الفور .. وهي تقول بحزم وصرامة .. أمامك الآن خمسة دقائق.. كي تهجري منزلنا.

غلبت الكثرة بينة أسيل، ولم تجد مناصًا من مغادرة البيت وهي حسيرة على مالها الذي سلب منها خلسة ودون رجعة ومغتاظة أشد الغيظ على ضيم وظلم الناس لها وجورهم عليها دون وجه حق،

فلم تجد غير الدموع المنهطلة ترويحًا عن نفسها المستضعفة الواهنة، ولم تجد غير جملة حسبنا الله ونعم الوكيل تعزية وتسرية عن الظلم البين الذي وقع علي كأهلها من زوجها ومن أخيها ومن عمها وزوجته وأخيراَ من مالك البيت وأسرته..

فحملت حقائبها كديموتها، ودلفت بأقدام لاغبة وبنفس ناصبة، وبقلب واجف، وبعقل شارد، وبفكر حائر وشعور مض، فمضت ومضت في شوارع القرية الصغيرة، وكأنها فقدت صوابها ووعيها، فالتجت عليها الأمور، وتملكتها الحيرة، وداهمها القلق، لا تعرف أين ستذهب؟

ولمن ستلجأ؟، ولقد أوصدت كل الأبواب في وجهها، سارت في حر الهجير وأشعة الشمس المتوقدة تكاد تحرقها من الخارج، بينما كانت تحترق من الداخل وتزفر في فؤادها نيران الحسرة والغل والضغينة فكادت لو أن تفتك بجميع الظالمين لها والمتجنين عليها في التو واللحظة لو قدرت على ذلك، لكن العجز كان يستحوذها، وقلة الحيلة تكبلها، والهوان يسبى سجيتها، فاستشعرت في هذا الحين أن جميع الأنوار قد طفأت بالرغم من وهج الشمس المتأجج، فلم تر غير ظلام حالك يحدق بها من الأمام، ومن الخلف، ومن اليمين، ومن اليسار وأينما ولت وجهها.

وهكذا كان حال أسيل البائس وأمرها المريج، فلم تجد يدا حانية تهدهد نفسها الضعيفة المنكسرة، ولم تجد ما ينتشلها وينقذها من بحار الدنيا العاتية، ولم تجد ما يصد عنها شرور الأنفس ويكون لها حصنًا منيعًا؛ لمواجهة خبائث البشر، فأني لها ذلك ؟؟.. وهي وحيدة ويتيمة ومطلقة وفقيرة ولا حول لها ولا قوة..

لكن ما لبثت أسيل أن أدركت أن لها رب كريم حنان منان رحيم بعباده، وأنه لن يتخلى عنها أو ينساها؛ لأن رحمته قد وسعت كل شيء، ومن يرفع أكفه بالدعاء له لا يرده أبدًا خائبًا صفر اليدين، فلاذت لربها المجيد الذي لا بغلق بابه في وجه أحد وتضرعت إليه في خشوع واخبات أن يرحمها ويكرمها ويفرج همها وكربتها وبغتة تذكرت أسيل أخاها، فخاطبت نفسها قائلة. لقد نسيته. لا أدري ما

هو حاله الآن؟.. هل كف عن الحفر والتنقيب؟.. هل وجد ما تهفو نفسه إليه .. لا أدري. فربما يكون قد هدم البيت وتقوض بنيانه نتيجة أعمال الحفر الشديدة؟.. لا أعرف من أخباره شيئًا.. لأنني كنت أقطن في مناطق نائية عنه؟.. ولم أحاول مرة واحدة تحسس أحواله. وتقصى أخباره.. دعني من تلك الهواجس.. سأذهب الآن إليه.. لعلني أجده قد هداه الله وعاد إلى رشده وصوابه. وأقلع عن أفكاره السوداء واستفاق من ضلاله وغيه ..

١٢

ولت أسيل وجهها شطر بيت والدها القديم وهي على أمل ورجاء بتبدل حال أخيها إلى الأحسن وإنابته إلى الصواب والطريق القويم، وعندما توصلت إلى مقصدها، وقفت سامدة مبهوتة، لا تصدق ما تأدي إليه البيت فلقد وجدته خاويا على عروشه متهدما من معظم أركانه وحجراته ولم يبق به سوى بعض الجدران المتصدعة وغرفة رحيبة في جوف البيت مازالت قائمة وبحالة جيدة وقد سلمت من الأذى والضرر، فدنت منها بقلب وجل، وابتدرت بفتح الباب لتر ما لا يخطر على بالها حيث ألفت أخاها راقدًا على حصير تداهمه حالة إعياء شديدة مفاجئة فاقتربت منه فلم يشعر بقدومها من فرط الوعكة الصحية المباغتة التي تعتريه، فقالت بصوت خفيض وهي مرتجفة الأطراف.. ياسر.. ما بك.؟.. اجيبني يا أخي؟..

فرفع ياسر رأسه فنهض قليلًا من رقدته ووضع يديه على صدره.. ثم قال بصوت خافت منهك.. أسيل. هل عدت؟.. الحمد لله على عودتك الحميدة. فلقد كنت انتظرك منذ دقائق .. وتضرعت إلى الله أن يبعثك إلى.. كي أطلب منك الصفح والسماح على ما اجترحت في حقك من ذنوب وسيئات.. أرجوك سامحيني..

فصاحت أسيل وهي تبكى بشدة .. أخي ما بك. هل أنت سقيمًا ؟.. انتظرني سأحضر لك الطبيب حالًا.. وهمت للخروج فأمهلها ياسر وقال بلعثمة وبصعوبة بالغة.. تمهلي .. فلا جدوى الآن من حضور الطبيب .. فلقد نفد أمر الله .. وقضى الأمر .. ودنا الأجل. إنها بلا شك النهاية المحتومة..

_فقالت بكمد بالغ.. لا تقل ذلك .. إنها وعكة صحية خفيفة ليست أكثر..

_بل إنها سكتة قلبية يا أسيل.. فأنا أشعر بوخزات والآلام في صدري.. اسمعيني جيدًا فلقد أزف الوقت.. واقترب الرحيل.. المهم. لقد مكثت برهة من الوقت في أعمال الحفر والتنقيب. واكتشفت وجود مقبرة فرعونية لإحدى الملكات الفرعونية جميع محتوياتها من الذهب الخالص، فساعدني السحرة في رفعها من باطن الأرض، وأحضرت سمساراً في تجارة الآثار، ساعدني في بيع محتويات المقبرة الذهبية الخالصة إلى سماسرة غرباء أجانب، دفعوا لنا عشرين مليون دولاراً، وكان نصيبي اثنا عشر مليون دولار، ادخرت هذا المال اللبد في صندوق كبير ودفنته بتلك الحجرة أسفل هذا الحصير الذي أرقد عليه.. خذي هذا المال لك وحدك.. وهاجري من القرية إلى العاصمة.. وعيشي في سعادة وخفض وترف وبذخ. فأنت تستحقين كل الخير. لأنك تحليت بالصبر الجميل على الخطوب والظروف والمحن.. . ولكن لي رجاء.. سامحيني .. وادعي لي

بالرحمة والمغفرة و لا تنسي قراءة الفاتحة والصدقة الجارية على روح أخيك الذي عاش حياته في لعب ولهو وأوزار ومعاصي.. فلقد خدعتني الدنيا في وقت كنت أزعم أنها قد دانت لي وتبسمت في وجهي.. فيا ليتني قدمت لحياتي.. ثم انقطع عن الحديث وقد استخرط في معالجة القيء حتى داهمته الحشرجة وما لبث أن فاضت روحه ووافته المنية فانبطح على الأرض لا به حبض ولا نبض.. فصاحت أسيل بلا وعي جراء الصدمة الممتزجة بالأسى وراحت تقلب في الجثمان .. أخي.. أجيبني.. سأحضر الطبيب. ستكون بخير..

وظلت على هذا الحال برة من الوقت وعندما أيست من تلبية ندائها، وتيقنت من وفاة أخيها، تسلحت بالصلابة والثبات والجلد، وطلبت المساعدة من شيخ يجاورها في السكن، فشد الشيخ من أزرها وقامت زوجته بمواستها وتطييب خاطرها، بينما قام الشيخ بتجهيز الجثة وتكفينها والإعلان عن نبأ الوفاة حتى يعلم أهل القرية بذلك فيقوموا بتشييع الجنازة ودفن المتوفى، كل ذلك تم دون علم عمها، والذي شارك فحسب في تشييع الجنازة دون إبداء أية كلمة عزاء لأسيل بل لقد تولت عنه وتولى عنها..

وعندما غربت الشمس وأسجف الليل، باتت أسيل ليلتها في الحجرة الرحيبة التي توفى فيها أخيها وأغلقت بابها بإحكام عليها، فتوضأت وصلت ودعت الله أن يرحم أخاها ويسكنه فسيح جناته،

ويعفو عنه ويتجاوز عن سيئاته ويغفر له زلاته، وعندما فرغت من ذلك أحضرت المصحف الشريف وتليت آيات من الذكر الحكيم في تدبر وورع، وعندما انتهت من ذلك تذكرت وصية أخيها وحديثه إليها بشأن الصندوق، فأماطت الحصير، فوجدت حفرة مغطاة بقش، فأزاحت القش على عجل، فاستبان لها الصندوق الكبير الحجم فقامت بفتحه بشغف بالغ، فقرت عيناها برؤية المال اللبد من الدولارات الخضراء التي لا تعد ولا تحصى من فرط كثرتها فاسترعى انتباهها شيئًا ما حيث قد أطرفت ببصرها على جانب الصندوق لتلحظ صندوقًا صغيرًا مزركشًا ومبرقشًا بألوان زاهية بارقة فأخذته على الفور وهي تقول. لم يخبرني أخي أي شيئًا بشأن هذا الصندوق الصغير المبهر ففتحته وهي تواقة إلى رؤية محتوياته، لتجد بردية مصنوعة من أوراق البردي وبجوارها سوارًا أزرقا قد صنع من الأحجار الكريمة والمرمر والبرلنت آية في الجمال والروعة والسحر الأخاذ، فلم تتمالك أسيل نفسها من فرط جاذبية السوار ورونقه فابتدرت بلفه حول معصمها وهي تقول. ما أجمل هذا السوار. فلم أرَ في حياتي نظيره ولا شيئًا يضاهيه ولا يماثله في روعته، ثم بعد أن ارتدته بسطت يديها لتملئ عينها بحسنه وبريقه المتلألئ.. .

١٣

وعندما تشعشع نور الشمس وتغلغل في كافة أصقاع ونواحي القرية، تأهبت أسيل للسفر إلى القاهرة كما أوصاها أخوها الراحل، فدست الأموال الطائلة في حقائبها بعد أن أفرغت منها الملابس والمستلزمات، واتفقت مع سائق بالقرية لديه سيارة يستأجرها فحسب للسفر إلى القاهرة والمدن الكبرى ويقوم بقيادته بنفسه ويتقاضى أجراَ مقابل ذلك أن يقوم بتوصيلها إلى القاهرة .

وعندما جاء السائق حمل معها الحقائب الثقيلة العديدة وقام بتحميلها في حقيبة السيارة، بينما جلست أسيل في المقعد الخلفي بعد أن اطمأنت على حقائبها الغالية الثمينة ثم مضت السيارة.

فحملقت من النافذة إلى شوارع وأرباض وأزقة القرية الصغيرة، وكأنها تودعها الوداع الأخير.

وبينما كانت محدقة بنظرها في كافة المناطق التي تسير فيها السيارة وقع نظرها على بيت عمها فوجدت عمها يترجل أمام باب بيته فرمقته بنظرة ساخطة تملؤها الضغينة والغل وتمنت في طويتها له الهلاك هو وزوجته وأن يهدم البيت الذي طردوها منه على رؤوسهم بلا هوادة ويدك دكًا، وبعد أن عبرت السيارة البيت بقليل حوالى ثواني معدودة سمعت أسيل صوتًا مجلجلًا ودويًا

هائلًا وكأن شيئًا ما ثقيلًا قد سقط فنظرت خلفها ففوجئت بسقوط وانهدام بيت عمها حتى تساوى مع الأرض، وأصبح كومًا من الحجارة والطوب والأتربة فقال السائق عاجبًا ومشدوهًا.. أليس هذا بيت عمك يا أستاذة..

_ردت والدهش يتملكها.. نعم..

_أتودين العودة للسؤال على عمك وزوجته. والاستفسار عن حالهم بعد سقوط البيت.

_لا .. فلقد قضى الأمر وحدث ما حدث .. أمضى قدمًا. حتى نصل القاهرة قبل غروب الشمس.

ذهلت أسيل لما حدث منذ قليل إذ كان هذا الحدث متوائمًا ومتوافقا مع أمنيتها المدمرة التي راودت نفسها. فطمأنت ذاتها وقالت.. صدفة .. ليس أكثر. فلقد كان البيت متصدع الجدران وآيل للسقوط منذ فترة طويلة، ولقد حان الوقت للتقوض والسقوط .. وما ذنبي في ذلك؟!!!.. .

ثم سارت السيارة في الشارع الذي كانت تستأجر به الشقة والتي طردت منها أيضًا، فزلقت ببصرها إلى البيت فشاهدت زوجة مالكه تجلس القرفصاء على أعتابه. فاغتاظت أسيل أشد الغيظ، وتأجج لهيب الغل في فؤادها فتمنت في باطن سريرتها أن تحترق هي وزوجها وأولادها والبيت بلا تروى أو تريث. ويصبح البيت رماد.

وبعد ثواني. اصطلت النيران واشتعلت بالبيت.. فدوى الصراخ والصوات طلباَ للغوث والنجدة. وسمعت أسيل همهمات أن ربة المنزل سهوت عن مقلاة الزيت وتركتها على النار فترة طويلة وعندما تذكرت هرعت إليها فوجدتها وقد اندلعت النيران بها وفي المطبخ، فسكبت المياه عليها فاشتعل الحريق واضطرم في كافة أرجاء المنزل..

فقال السائق.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. ربنا يسترها على هؤلاء الناس.

بينما شردت أسيل وأخذتها الغرابة واعتراها العجب إذ حدث ما كان يتوافق مع رغبتها الشريرة المهلكة منذ قليل. فسئلت نفسها في حيرة. هل هذه المرة هي أيضًا صدفة؟!!!.. . إنه حقًا أمراَ غريباَ يبعث على الدهش والشدة.. ما الذي يحدث بالضبط يا أسيل؟.. . هل غدوت حاسدة حاقدة خبيثة النفس؟.. هل قد ران المال على نفسك وختم عليها بالخبث والغل والحسد وكراهية أعدائك وتمنى لهم الويل والهلاك.. لم تكن كذلك من قبل .. فلقد بدل المال حالك إلى الأسوأ. وليس إلى الأحسن كما كنت أزعم.. فرفعت يدها كي تغلق النافذة فيكفيها ما رزئت به من مصائب، فاستلحمت السوار مازال في معصمها. فشهقت وناجت نفسها في عجب.. لقد نسيت أن أخلع السوار من معصمي.. فحاولت أن تخلعه على الفور حتى لا يراه أحد في يدها فيكتشف أمره الخطير، فحاولت وحاولت

وحاولت أن تنتزعه ولكن بلا جدوى، حيث كان محكم الإغلاق، وكأنه قد أغلق بمفتاح أو بطريقة سرية، فارتاعت لذلك، وخشيت أن يلاحظه أحد في معصمها، فوارته تحت أكمام فستانها..

وهي تطرح سؤالًا شائكًا معقدًا.. ما سر هذا السوار العجيب؟.. لماذا لا أستطيع خلعه؟..

ما هو لغزه وسره؟.. ليتني أعرف.. ليتني أعرف..

واستكملت السيارة سفرتها الطويلة الشاقة..

١٤

استقرت أسيل في القاهرة وابتاعت لها فيلا واسعة وسيارة فارهة، واستقالت من التربية والتعليم كمدرسة، واستخرجت تصاريح؛ لتشييد مدرسة ابتدائية خاصة تديرها بنفسها كي تزجى وقت فراغها وتستثمر أيامها الشاغرة في أشياء نافعة ومجدية وذات قيمة، فقطنت في فيلتها برفقة العاملين لديها من طباخ وعاملة نظافة وبواب وغدت في شأن آخر، فبعد المعاناة والقهر والقسر التي بليت بهم في الماضي أصبحت الآن تحيا في خفض وترف وعيش رابغ، والدنيا التي كلحت في وجهها وأدارت لها ظهرها في العهد المنصرم أتتها صاغرة دانية بكل مطالبتها في الوقت الراهن،

وبعد أن كانت لا تملك غير راتبها، صارت الآن من ذوى الأملاك والثراء والمال اللبد، وعلى الرغم من كل ذلك فلم تستشعر أسيل سعادة ولا بهجة ولا طمأنينة فؤاد ولا سكينة سريرة فلقد خامرها إحساسا قاسيا بأن شيئًا ما حيويًا وهامًا ينقصها ألا وهو الأمومة والذرية، فلقد كانت وحيدة لا عزوة لها ولا أبناء ولا عائلة تحتويها وتضمها في حنان ودفء. ومودة، فلم تسأل عن أحد، ولم يسأل عنها أحد، وكأنها ورقة خضراء قد اجتزت من شجرة ناضبة الأغصان والأوراق والسيقان وعاشت من أجل نفسها لأنها لم تجد من تعيش لأجله فكانت تقضى نهارها في إدارة مدرستها الخاصة، وفي الليل مع

أحلامها المزعجة المخيفة، فلقد كانت دوماً تحلم أنها تغرق في النهر ولم تجد من ينقذها ويمد لها يد الغوث، فتستيقظ مذعورة من نومها فتحمد الله على أنه مجرد جاثوم وكابوس وليس حقيقة وواقعًا، فستعيذ بالله من الشيطان الرجيم وتنهض كي تباشر عملها اليومي وكأنها تجد فيه عزاءً كبيرًا عن حياتها الخاوية الفارغة، وذات يوم من الأيام المتتابعة بلا تريث، خرجت أسيل واستقلت سيارتها كعادتها وهي في الطريق اصطدمت سهوًا بغير قصد في إطار سيارة أخرى كانت سائرة أمامها، فلم يحدث أي ضرر للسيارة ولكن قائدها لم يرضه ذلك حيث قد استدار لأسيل وغص نفسها بحفنة من الشتائم والألفاظ اللاذعة الجارحة، ففت ذلك في عضد أسيل وكدر صفو نفسها وجعلها تشعر بالضيم والحرج والعجز مرة أخرى بعد أن رحلت تلك الأشياء البغيضة عنها ولكنها ما لبثت أن عاودتها من جديد فتملك الغضب سجية أسيل واستحوذ على جوارحها فشعرت بقتامة الحياة وبسوء أخلاق البشر وبدمامة سلوكهم، فلم يشفع لها اعتذارها للرجل عما بدر منها عفوا، بل انهال عليها بالشجب والتقريع والتبكيت، ولم يرحم كونها امرأة وحيدة لن تتحمل كل ذلك وبالتأكيد ستنفجر نفسها ضيقًا وضجرًا وسخطًا كما تنفجر القنبلة النووية في الحروب الضرسة، فتمنت أسيل في مكامن ذاتها أن تدهس سيارة الرجل شاحنة نقل بضائع كبيرة فتفتك به وتودي به إلى ظلمات القبور في الحال، وبعد هنيهة استلمحت شاحنة نقل عملاقة الحجم تنحرف وتحيد عن

دربها وتنطلق إلى اتجاهها، فصاحت أسيل وهي مروعة ومتفاجئة وتوقفت عن القيادة في الحال وحجبت عينيها براحتيها، فسمعت صوت اصطدام وارتطام شديد وصراخًا عاليًا فرفعت يديها؛ لترى ما الأمر، فرأت الشاحنة وقد دهمت سيارة الرجل فحولتها إلى صفيح وحطام وحولت الرجل إلى أشلاء متمزقة متناثرة ودماء غزيرة وكان كل ذلك على قاب قوسين منها فصاحت هي الأخرى وهي مرتجفة جراء الحادث المفزع الشنيع،

وفي دهمة الليل وقفت أسيل في شرفة حجرتها وهي حائرة آسفة كالحة الوجه وهامت في فكر دائب وجشيم، فراحت تحاسب نفسها حسابًا عسيرًا على أسرفت في حق الرجل من تمنى الويل والهلاك له ثم فجأة تحققت أمنيتها السوداء الخبيثة المنتقمة بحذافيرها، فخشيت أن تكون قد حاق بها داء الحقد والحسد والذي يجعل من صاحبه أسيرًا للغضب والسخط وطوعا للانتقام والبطش فثربت نفسها أشد التثريب وتمنت أن تبرأ من مرض الغضب وتشفى من داء الحقد.

وفي ضوء البدر المتلألئ لحظت السوار العجيب النادر الذي لا يبرح في معصمها ولم تنجح في خلعه حيث قد منيت كل المحاولات بالإخفاق وفجأة ساورها إحساسًا غريبًا فناجت نفسها في دهش .. لماذا حدثت كل تلك الويلات الثلاثة من هدم، وحرق، ودهس في

وجود هذا السوار الغامض؟!!.. أشعر أنه له علاقة وطيدة بكل ما يجرى من خطوب وأمور غريبة خارجة عن المألوف..

فتذكرت أن السوار كان مرفقًا ببردية، فهلمت إلى دولابها؛ لتبحث عن تلك البردية، فربما تدلها عن حل لهذا اللغز التي يحدق بها ويعكر صفو حياتها، فاستخرطت في البحث الدائب وهي على أمل؛ لأن تجد ما يخلصها من تلك الصعداء..

ابتاعت أسيل الكتب والمراجع والقواميس التي تساعدها على دراسة اللغة الهيروغليفية كي يتسنى لها ترجمة البردية والتي وجدتها بعد بحث مكثف وجهد شاق في دولاب ملابسها متوارية في أحد الأركان بين طيات الملابس فانكبت على المذاكرة والتعلم وواصلت النهار بالليل وكأنها في المدرسة الثانوية وتريد أن تحصل على أعلى الدرجات كي تمهدها للالتحاق بإحدى كليات القمة فكان هذا ما شابه حالها اللاغب في الاعتكاف بغرفتها والإسراف في البحث والاطلاع والمذاكرة، وبعد بضعة أيام من النصب والإجهاد والاجتهاد والجد تمكنت أخيراً من ترجمة البردية المعقدة وكانت المفاجأة الصاعقة والتي ضاعفت أحزانها وهمومها.

فكان نص الترجمة كالتالي

سوار الملكة سويك نفرو.

هذا السوار خاص فقط بالملكة سويك نفرو وقد صنع من أثمن الأحجار الكريمة وأندرها.

فلقد تولت الملكة الحكم بعد وفاة والداها حيث كانت البلاد تمر بفترة عصيبة من الفتن، والمحن، والاضطرابات الداخلية، والحروب الخارجية، وتزايدت أعداد الخونة والجواسيس وكثرت الأعداء من

مشرق الأرض لمغربها، وجميعهم ينتظرون هلاك الملكة وسقوط الدولة وضعفها وتفككها وانحلالها.

فذات يوم طرأ على خاطر الملكة فكرة ثاقبة، فقامت باستدعاء أحد كهنة المعبد، وأمرته بأن يجد لها حلًا عن طريق السحر يمكنها من القضاء على أعدائها وإعادة البلاد إلى أمنها واستقرارها ورخائها، فجمع الكاهن اتباعه ورفقائه من الكهنة والسحرة والعرافين، وبعد عدة أيام.

زار الكاهن قصر الملكة والبشر يرفرف على محياه وعندما التقى بها قدم إليها صندوقًا مزركشًا.

فانبهرت الملكة برؤية هذا الصندوق الرائع، وقامت بفتحه ففوجئت بسوار من أغلى الأحجار الكريمة وأبهرها، فراق لها كثيرَا وأسر لبها من فرط روعته وبريقه، ثم قالت للكاهن:

أشكرك على هديتك الثمينة القيمة. ولكن لا أريد هدايا في الوقت الراهن .. بل أريد حلًا لتلك المحن التي تتعاقب علينا كغسق الليل الطويل.

فأجاب الكاهن وهو يعتد بنفسه.. مولاتي.. هذا السوار هو الحل..

فقالت بدهشة. كيف؟

_هذا السوار الجميل ليس للتزين فحسب بل أيضًا للقضاء على الأعداء.

_كيف ذلك أيها الكاهن هل تسخر مني ؟

_ معاذ الله.. لقد استدعيت أمهر الصناع والحرفيين لصناعته .. وبعد أن فرغوا من ذلك .. قمت بأخذ السوار والقاء تعويذة قوية عليها هي في حقيقتها ووقعها على النفوس أشد وأغلظ من السحر الأسود. ولا أحد يقدر على إبطالها والتصدي لشراستها مهما كانت قوته وقدرته في كافة أنواع السحر وأشدها.

_كيف ذلك؟.. وضح الأمر

_ كل ما عليك فعله هو لف السوار حول معصمك. والنظر إلى أعدائك وأعداء البلاد ثم تمنى لهم الهلاك والفناء والويل. وكل ما يقر في قلبك ونفسك هو ما سيحدث ويتحقق دون زيادة أو نقصان.

_.. ولكن أخشى أن يسرق أحد الأعداء السوار فيستعمله ضدي وضد البلاد.

_فلتطمئن الملكة سويك.. فلن يحدث ذلك أبدًا؛ لأن بمجرد ارتدائك للسوار فلن يخلع أبدًا من معصمك إلا عند الموت. أطال الله في عمر الملكة..

انتهت أسيل من ترجمة البردية باستثناء سطرًا واحد فلم تتمكن من ترجمته نظرًا لحالة النصب والتي ألمت بها جراء الجهد المتواصل..

١٦

جأشت أسيل لما ترجمته من البردية بعد اجتهاد كبير منها فعضت على أناملها جراء الندم الهائل الذي تأجج

في نفسها كنيران موقدة، فودت لو لم تلبسه أو تراه أبدًا، وما الذي ستحصده من ورائه غير حصد الأرواح بعمد وغير عمد، فلن تستطيع أبدًا التحكم في أهواء ونزعات نفسها، لن تقدر على كبح جماح غيظها الذي يساوره كل حين، لن تنجح أبد في تملك سجيتها عند الغضب؛ لأنها ضعيفة وليس بقوية، فالقوي فقط هو من

يملك نفسه عند الغضب، ولكن الغضب هو من يملك نفسها ويتحكم في أحاسيسها ونزعاتها كيفما يشاء، الغضب هو الآمر الناهي بجبلتها الواهية السقيمة، فليس لها من الأمر شيء، لن تستطيع أن تحجب السخط والنقمة عن سليقتها، وبالتالي فستزهق العديد من النفوس البريئة وغير البريئة، جراء تمني الهلاك والويل لهم، فأبت ذلك ولفظته بشدة وشنئت نفسها التي سولت لها ارتداء السوار المبهر العجيب، وشنئت الأسباب والدوافع التي تمكن جأشها من الانفعال والحقد والبغض ثم الغضب والسخط ثم الهلاك والفناء في لمح البصر فأسرفت على نفسها المعذبة في العذل واللوم والتثريب، فلم ترضخ لذلك وأزمعت على محاربته بشتى الطرق والوسائل، فأحضرت مقصًا حادًا، واستماتت في قص السوار بعنف بالغ وبقوة، فلم تتمكن من خدشه كما تصورت بل جرحت

يديها البضة جرحًا عميقًا وتدفقت الدماء منها كالفيضان المدمر، فشرعت في معالجة الجرح بالإسعافات الأولية حتى يتجلط الدم، كي تتمكن من إنقاذ نفسها التي هي على شفا الهلاك؛ لأن الجرح كان بالقرب من شرايين الأيدي، وعندما نجحت في كتم الدم المنهطل وتضميد الجرح، قالت بصوت خفيض..

كادت أن تأذي يدى ولم تأذ السوار العجيب. ماذا أنا فاعلة في هذا الحين؟.. هل أحرقه؟.. أم أحضر حمض كبريتك مركز وأسكبه عليه حتى يذيب عن معصمي.. لا .. فلو أقدمت على فعل ذلك لهلكت حتمًا. إذن فكيف سأتصرف؟.. فأنا في موقف حرج لا أحسد عليه؟.. هل أسجن نفسي في تلك الفيلا وأقوم بطرد العمال، وأحيا بمفردي ريثما يوافيني الأجل حتى لا أتسبب في إيذاء وهلاك الآخرين..

إذ فعلت ذلك .. فأشق على نفسى كثيراً وأضنيها وأعذبها أكثر من عذابها ؟.. ولن أتحمل العيش وحدب في تلك الفيلا الوسيعة. فأنا بحاجة إلى بشر أشعر بالإيلاف لوجودهم معي .. واطمئن لسماع أصواتهم. فلو طردت العمال من هنا .. سأتسبب أولًا في قطع أرزاقهم ومنعهم من الحصول على قوت يومهم .. ستستحيل الفيلا المبهجة الجميلة إلى أرض مقفرة بغيضة.. وستهلك أسيل وحدها دون أن تجد من يلقنها الشهادة أو يكرمها بالدفن والترحم عليها. ولكن لا لن أخنع لليأس أبدًا.. إن شاء الله سأتوصل لحل في القريب العاجل.

١٧

العالم الروحاني مهيب لعلاج جميع الأمراض الروحية من سحر ومس وحسد في أربعة وعشرين ساعة فقط.. كان ذلك إعلان استوقف انتباه أسيل أثناء تصفحها للجريدة اليومية، فبادرت بكتابة العنوان، وهرعت قاصدة إياه لعله يساعدها في خلع هذا السوار المدمر من معصمها الجريح، وعندما وصلت إلى مكتبه، جلست في صالة الانتظار بعد أن أخذت إذن ودفعت أجر الجلسة الباهظ للسكرتير، وعندما حان دورها، ولجت إلى المكتب وهي قلقة ومتخوفة والرهبة تتملك فؤادها. فألفته رجلًا في أوائل الخمسين من عمره يرتدي بذلة سوداء ورابطة عنق ويجلس مبتسماً ويتصنع الحلم والوقار واتزان النفس، فألقت التحية عليه، فرحب بها وهو يقول.. تفضلي.. ثم أطرق هنيهة .. واستطرد. استشعر بوجود قوة خفية شريرة تخيم على أجواء الحجرة. من أنت ؟.. وما هي حكايتك؟..

_فأجابت .. إنه السوار..

_السوار الذي تلفينه حول معصمك .. هل هو فرعوني أصلى؟

_نعم.

_وما الذي جعلك ترتدين شيئًا يحمل كل هذا الشر والويل؟

_لقد علمت اللغز دون أن أخبرِك.. فهل لكِ أنتِ تساعدني في خلعه.

فشرد فجأة ثم تمتم وغمغم وقال. إنه سحر أسود .. إن هذا السوار قد وكل به و سخر له أشد وأعتى مردة الجن والعياذ بالله. ثم ردد. أعوذ بكلمات التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة.

_فأعادت السؤال وهي تطمع في إجابة شافية منقذة .. هل لك أن تساعدني؟

_فشرد وهلة أخرى ثم هممهم.. وقال.. استمحيك عذرًا أيتها السيدة .. لن أستطيع مساعدتك على الإطلاق.

_سأرفدكِ كل ما تطلبه من أموال.

_وما فائدة المال عندما يخسر الإنسان حياته؟

_ماذا تقصد؟

_إذا أقدمت على فعل أي شيء لخلع هذا السوار، فسأفقد حياتي. فهذا السوار لن يخلع من معصمك إلا عند الوفاة.

_فقالت والدموع تسح من عينيها.. بالله.

عليك. ساعدني.

_لن أستطيع.. لن أستطيع. ولن أحد يستطيع على خلعه حتى وإن كان على مقدرة هائلة من السحر والدجل والشعوذة.. اخرجي من

هنا .. فلقد انتهت الجلسة .ووفري على نفسك العناء.. ولا تحاولي الاستعانة بأي عالم روحاني آخر. فلن يقول لك غير ما قلت. عودي الآن إلى بيتك .. واطلبي من الله العفو. فهو وحده من يقدر على تفريج كربتك.

استقلت أسيل سيارتها والإحباط يرافقها، فذرفت الدموع من موقها ذرفًا لعلها تغسل آثامها وذنوبها وتمحص نفسها من الغل والحقد وتطهر قلبها من الضغينة، وتخمد نيران الغضب المندلعة بمكامن سجيتها وظلت على هذا الحال الشجي حتى أسدل الليل ظلماته على الكون، وتأخر الوقت حتى انقضت هدأة من الليل الطويل، وما برحت أسيل بسيارتها الفارهة الباهظة تبكي وتلوم نفسها حتى مضت على طريق مقفر غير مأهول بالسكان، فبرقت ببصرها فرأت اثنين من قطاع الطرق ولصوص الليل مدججين بالأسلحة مترجلين و يعترضون دربها وهما شاهري البنادق الآلية بوجهها، فذعرت وهلعت ووجف قلبها الضعيف حتى كاد أن يتوقف عن النبض من فرط الرهبة والروع. فما كان منها إلا أن توقفت بناء على رغبتهما وطلبهما. فقال لها أحدهما بنبرة غليظة.. هيا انزلي من السيارة فوراً.

_فقالت أسيل وهي ترتعد.. اتركوني لشأني من فضلكم..

_فقال الآخر غاضبا.. نفذي الأمر .وأخلى السيارة فوراً حتى نستحوذ عليها وإلا أزهقنا روحك في الحال.

فعلمت أسيل أنهما مجرمين عتاة أفظاظ لا يعرفون الرحمة ولا الهوادة، فتذكرت السوار المدمر الذي يطوق معصمها .. فناجت نفسها.. لقد حان دورك أيها السوار.. اتمنى لهذين المجرمين أن تبتلعهما الأرض فوراً نكالًا لهما عن زيغهما عن الحق وسلك طريق الشر والإجرام وترويع الآمنين والعزل.. وماهي إلا ثوان حتى سقطا الأثنان في بالوعة صرف صحى كان يقفان على غطائها القديم المتهالك دون أن يعلما فأثمر ذلك عن انكسار الغطاء القديم فجأة.. وسقوطهما في قعرها مع الفضلات الآدمية والمياه النتنة والفئران الضارية.

فلم تسمع أسيل غير صوت غليظ يطلب الغوث والنجدة، ومن هنا بلج وجهها وأثلج صدرها، وهدأ قلبها الخافق، وحمدت الله وقالت.. تستحقا تلك النهاية الشائنة وهذا الجزاء أيها اللصين الخبيثين .. ثم انطلقت بسيارتها وهي تقول. لقد علمت ما شأن هذا السوار. سأستعمله فقط في محاربة الشر والأشرار. وسأروض نفسى من الآن وصاعدًا على التحلي بالحلم وتملك النفس ونبذ الغضب، وسأجاهد نفسي من أجل ذلك حتى لا أقتل شخصًا بريئًا في يوم من الأيام، فلو كان العالم الروحاني خلصني من هذا السوار لكان هذان اللصين أطلقا النار على قلبي وزهقت روحي في الحال وانتهت حياتي في لمح البصر دون عزاء أو رثاء ثم شكرت الله وأثنت عليه وقالت. الحمد الله عدد خلقه ورضاء نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته..

١٨

استيقظت أسيل من نومها مبكرا، وتهيأت للذهاب إلى عملها بالمدرسة وأثناء قيادتها للسيارة

لمحت بحوزتها شيئا ليس بغريب عنها ومألوفا لها، فاستدارت إليه لتتحسس الخبر بإمعان و تتقصاه على وجه الدقة والوضوح، فجأفت عندما شاهدته رأى العين وبصورة جلية واضحة كالشمس الساطعة في السماء، فرمقته جيدا لعلها شبه إليها أو لعلها تتخيل أو يتهيأ لها أشياء وهمية من نسج خيالها، فأدامت النظر إليه حتى تحققت من ظنها المريب، وتأكدت من شكها الأليم، حيث ألفته وجيهاً أنيقًا يرتدي أفخم الثياب ويستقل سيارة فارهة ذات ماركة حديثة عالمية، وكانت كنفه امرأة في الثلاثينات من عمرها تحجب عينيها بنظارة شمسية سوداء، وتتحدث إليه وهي مبتهجة، فعلمت أنها زوجته المنشودة، فاحتدم سخط أسيل واضطرمت نيران الغل في شغاف قلبها حتى كاد أن يتفحم وتتطاير أفلاذه المحترقة المتفحمة إلى الفضاء فتفسد الهواء النقي وتظلم الدنيا المنيرة فناجت نفسها وهي تتميز من الغيظ.. الوغد.. لقد سلب مني كل شيء.. رأسمالي الزهيد في الدنيا. وراحة بالى. ورضا نفسى.. لقد أفسد على حياتي .. لقد جعلني امرأة ساخطة ناقمة تضطرم نار الضغينة في قلبها بين الفينة والأخرى .. والآن ها هو سعيد

برفقتها.. بعد أن حطمني.. وكسر بخاطري.. وغدر بي وأنا وحيدة وضعيفة ولا حول لي ولا قوة. ها هو. يضحك ويمزح.. وهاذا أتألم .. وأكابد ويلات الظلم والضيم والجور.. أيها النذل لن أدعك تهنأ بحياتك. فكما سلبت مني هنائي وصفاء نفسى .. فسألبك حياتك. ثم توقفت فجأة وقد زلقته ببصرها للمرة الأخيرة وهي تقول.. وداعًا يا علي.. اذهب أنت وهي إلى النهر بلا رجعة غير مأسوف عليكم..

وبعد أن تمنت أسيل الهلاك والفناء لطليقها الذي غدر بها وأجحف بحقها وانتزع منها خلسة كل ثروتها الضئيلة لينفق منها على نفسه وعلى زوجته، رنت أسيل إليهم رنوة أخرى ملؤها الألم والوجع والحسرة فاستبان لها بغتة لفافة يرقد بها طفل رضيع ويناغي مناغاة لطيفة، وكأنه يعلمها بوجوده ويقول لها .. أنا هنا .. طفل رضيع لطيف برئ. لا ذنب ولا جريرة لي.. غير أنني من ذريتهم ونسلهم.. ولا تزر وازرة وزر أخرى. فارتاعت لرؤيته، وصاحت وهي سادمة بشدة .. لا .. لم أرك أيها الطفل البريء النقي.. لم أقصد أن أقتلك معهما.. لا.. لقد رجعت في قراري الغاشم..

لا. لقد عدت لصواب وحلمي.. فلقد كاد الغضب أن يسلبني رشدي وعقلي .. . لا .. لن أتمنى لكم غير السلامة ليس من أجلكما بل من أجل طفلكما البريء..

فتتبعت أسيل سيارتهم وهي متوترة وقلقة للغاية، تود لو أن يعدل السوار المدمر عن مهمته الهوجاء التي نوط بها أو أن يعطب

مفعوله أو يفسد سحره، فينجو الطفل من الموت والهلاك المحتوم، فمازالت تتقفى سيارة زوجها وهي تكتم أنفاسها وتكبت أنين قلبها السقيم بداء الغضب والانتقام، وبعد بضعة دقائق حدث ما كانت تتخوفه وترتجف منه أوصالها حيث انحرفت السيارة فجأة وكأن محركها قد حدث به خلل أو عطب جعله لا يتوقف ولا يتريث ولا يتهادى، فلم يستطيع على السيطرة على فرامل السيارة والتي انطلقت بسرعة جنونية هوجاء، فصاحت زوجته واحتضنت رضيعها بقلب وجيف وبعرق غزير متصبب على جبينها، فتضرعت إلى الله بأن ينجى صغيرتها برعايته وحفظه، حتى مضت السيارة الهائجة على كوم من القش كائن على حافة النهر، فألقت الزوجة صغيرتها برفق على أعواد القش الكثيفة وبحوزتها حقيبة سوداء، ثم ما لبثت أن انقلبت السيارة في النهر العميق، وغاصت في قيعانه حتى لم يظهر منها أي أثر أو علامة ومن هنا لقى الزوجان حتفهما وقد اختنقا بالسيارة بعد أن غرقت واستقرت بقعر النهر، ولم يستطع أحد نجدتهما أو إغاثتهما، فتجمهر المارة حول الحادث المروع، وقد تمكنت فرق الإنقاذ النهري من انتشال السيارة وكذلك الجثامين،

وسقطت ورقتهما وطويت صفحتهما من الحياة، أما الطفل الرضيع فلقد تتبعت أسيل السيارة المندفعة، ورأته وهو يتدحرج بتؤدة من نافذة السيارة على كوم القش، فحمدت الله عز وجل وهرعت إليه توا، وبسطت له يديها في حنان وحب، وحملته في رفق ورحمة

ولحظت الحقيبة التي سقطت معه فأخذتها وبادرت بركوب سيارتها ومغادرة المكان حتى لا يشعر أحد من المارة بوجودها،

وهرولت إلى فيلتها وهي محتضنة الطفل والندم يكاد يصرعها، وفي غرفتها فتحت الحقيبة، فرأت شهادة الميلاد لطفلة تدعى لين على عبد المقصود، فشهقت أسيل ثم حملت الطفلة وهي تقول مناجية إياها .. هل أنتِ بنت فلقد زعمت أنك ولد.. فقبلتها في حنان بالغ وقالت بصوت خافت. من الآن فصاعدا أنتِ ابنتي وأنا أمك .. فستحيا هانئة في دنيا ناعمة في جناح أمك المحبة الحانية أسيل.

سأكفلك أيتها الصغيرة .. ولن أدعك بإذن الله تشعرين في يوم ما أنك يتيمة .. كل ثروتي بين يديكِ.. كل أملاك لكِ وحدكِ.. ولكن لي رجاء .. أن تسامحيني .. فلم أقصد ما حدث .. يعلم الله أنني لو كنت رأيتك بادئ الأمر لكنت تخليت عن رغبتي المدمرة الشريرة الانتقامية .. ولكنت عفوت عن أبيك الوغد الظالم ليس من أجله بل من أجلك فحسب.. أرجو أن تسامحيني.. وتلتمسين لي الأعذار فلقد كنت ضحية والدك الجائر ليس أكثر .. فلم أكن خبيثة بطبعي بل الخبث صفة سيئة اكتسبتها من أوزار وشرور وافتراءات البشر.. عشت حياتي قاطبة طيبة النفس طاهرة القلب .. ولكن هذا لم يعجب البشر .. فلقد اعتقدوا أن الطيبة ضعف. وزعموا أن الطهر عجز.. فاستضعفوني. واستخفوا بحالي وحاصروني

بكل أنواع الخبث والإفك والظلم البين، حتى نضحت نفسي بما تكابده وتتجرعه من ويل وضيم وقهر، فأصبحت هكذا .. لا أستطيع التغلب على غضبي،، ولا أستطيع وئد حقدي..

دائمًا أدعو الله أن يرحمني ويعفو عني ويغفر لي فهو الغفور الرحيم.

فأكرمت أسيل الرضيعة، وأغدقت عليها من مطايب الحياة، فخصصت لها مربية ومرضعة ترعى شئونها وتتولى رعايتها وتهتم بمتطلباتها وبالرغم من جودها وسخائها مع الطفلة اليتيمة إلا أنها لم تكن في مرة قط راضية عن ذاتها ولا متصالحة مع نفسها، فلقد كانت دائبة اللوم والعذل كل حين، في الصباح وفي المساء، في الغداة وفي الرواح، في اليقظة وفي النوم والسبات، لم يرحمها ضميرها الحي فلقد كان يوخزها وخزات أليمة قد أفسدت عليها الحياة الراغدة الدانية وعكر عليها العيش الرحراح الرسيغ، فودت لو أن تقطع يديها وتجذها حتى تستطيع أن تجذ الغل وتجتثه من مكامن سجيتها فستريح ويطيب حالها، وتسطيع العيش عيشة سوية هادئة خالية من سموم الغل وبارئة من نزعات الغضب، ولكنها قد استنفدت كل حيلها من أجل التخلص من السوار ومازال في معصمها يتلألأ كأشعة الشمس الحارقة، يفتك بكل ما تسول له نفسه إيذاء وإلحاق الضرر بنفس صاحبته ولكن كان ثمة شيئًا باهيَا رقيقًا يبعث البهجة والحبور بقلبها الشجي ألا وهو ابتسامة الطفلة

العذبة البريئة فقد كانت تهون عليها كل مصاعب الحياة بلوازمها الأيام، فحمدت الله على أنعمه عليها التي لا تحصى، وتوسلت إليه أن يسامحها ويعفو عنها ويغفر لها ويرحمها برحمته التي وسعت كل شيء،

وعاشت الحياة بطريقة نمطية روتينية كانت بالنهار بالمدرسة وفي الليل مع الطفلة، وحاولت بقدر المستطاع أن تنبو عن الناس وتعتزل الحياة الاجتماعية وتنزوي بنفسها في فيلتها الوسيعة حتى لا تفتك بأحد آخر وتقتل إنسان قد يكون مجرمًا وقد يكون بريئًا فاكتفت بالمعاملة الحسنة الودودة مع العاملين لديها بالمدرسة من مدرسين وعاملين نظافة وكذلك التلاميذ وأولياء أمورهم وجاهدت من أجل كظم الغيظ والعفو عن الناس، وحل مشكلاتها بطريقة هادئة وبسيطة بعيدًا عن الحقد بعيدًا عن السخط بعيدًا عن استعمال السوار المدمر.

١٩

غدت أسيل محبورة مبتهجة وهي ترصد وتتبع الطفلة لين وهي تحبو وتنمو وتكبر نصب عينيها وتتعلم النطق وكيفية الكلام، فزهر وجهها واغتبط فؤادها عندما سمعت أذنيها لأول مرة كلمة أمي بطريقة عفوية وتلقائية ومفاجئة، فذرفت دموعها من فرط الفرح والسرور، واحتضنت الطفلة وهي تقول لها بنبرة حانية .. كنت أزعم أنني لن أسمع هذه الكلمة الجميلة العزيزة على قلبي أمد الدهر.. لكن الآن حدثت المعجزة .. وسمعتها بعد اشتياق طويل وعمر مديد .. ثم رفعت أكفها إلى الله وقالت وهي منيبة إليه في تذلل.. أحمدك يارب .. وأشكر فضلك .. واتوسل إليك أن تغفر لي ذنوبي وجرائري.. فأنا نفس ضعيفة مذنبة ترجو عفوك ورحمتك ورضاك.

فقبلت لين وهي تناجيها في حنان دافق.. سأكون لك بمشيئة الله نعم الأم. ولن أقصر في حقك لحظة واحدة.. حفظك الله ورعاك أيتها الطفلة البريئة النقية الطاهرة.

وهل العيد والبهجة تخيم على أجوائه وتبعث في السرائر البشر والطمأنينة، فاصطحبت أسيل طفلتها التي بلغت من العمر الخامسة وخرجت في نزهة على ضفاف النهر وهي منتاشة، وتود

أن تعلم جميع الناس أن تلك الطفلة الجميلة الطلعة هي ابنتها وروحها وفلذة كبدها وضي عيونها، فقالت لها لين في براءة .. أمي أريد أن أذهب إلى الملاهي.

_حاضر يا حبيبتي .. طلباتك كلها ستلبى في الحال بإذن الله .. هيا سويا إلى الملاهي، واللعب، والمرح، والسعادة.

وأثناء ركوب لين على الأرجوحة راحت الأم تداعبها في حب وحنان وتربت بيديها على شعرها السبط المسترسل وتربط لها نطاق فستانها الزاهي، فاستلمحت لين السوار المهلك يلتمع في معصمها فقالت لها.. أمي لماذا أراكِ دومًا ترتدين هذا السوار العجيب ولا تخلعيه في مرة قط.

فساور الألم القديم نفس أسيل من جديد ونكأ الجرح وهلة أخرى، وتذكرت طامتها الكبرى التي حاولت مرارًا أن تسهو عنها بعض الوقت كي تعيش سعيدة قليلًا وتستشعر بوهج ودفء الأمومة مثل سائر الأمهات ولكن أني لها ذلك والمحنة تطوق معصمها ليلًا نهارًا لا تفارقه قط، فتألمت لما حدث سلفًا من مصائب لها ولغيرها وتمنت بأن تطمس الفترة الماضية من تاريخها وكأنها لم تكن؛ لأن ذكراها الأليم يقض مضجعها قضًا ويعصف بصفو حياتها و يصرع سكينة نفسها.

فأجابت وهي متوجعة.. ليتني استطيع خلعه يا صغيرتي .. ليتني أستطيع. لكنت استراحت كثيراً. وولدت من جديد.

وعندما انتهت إجازة العيد وعاد كل فرد لعمله ووظيفته استأنفت أسيل إدارتها لمدرستها التي تملكها، وبينما كانت جالسة بمكتبها تباشر أعمالها، ولجت امرأة في استحياء وخفر، فأقرأتها السلام فالتفت إليها أسيل وهي بشة ثم أجابت. وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.. تفضلي..

فجلست المرأة قبالة أسيل .. ثم قالت بلهجة هادئة مترجية .. لي عندك طلب يا أستاذة .. وأرجو ألا ترفضيه.

_تفضلي.. هل لديكِ تلميذ بالمدرسة يعاني من إحدى المشكلات.

_لا .. بل أريد أن أتقلد وظيفة هنا بمدرستك الموقرة.

_اذهبي إلى غرفة السكرتارية وسجلي بياناتك وعندما نحتاج إليك سنتصل بك على الفور.

_ولكني. سجلت بياناتي هنا مرات عديدة وقدمت على طلب الوظيفة مراراً. ولا حياة لمن تنادي.

_كيف ذلك؟.. إنني أوصى كل عام بتوظيف عدد لا بأس به من المدرسين الجدد.

_ولكن .. للأسف الشديد .. دائمًا لا أكون منهم.

_ ما هو مؤهلك الدراسي؟

_حاصلة على ليسانس آثار.

_ولكن نحن نلتفت فقط للحاصلين على كليات التربية شعبة التعليم الأساسي بكافة أقسامه .. لأنني لدى مبدأ أسير وفقًا له .. المهنية والأكاديمية والتخصصية هم من لهم الأولوية .. فلابد أن يكون المدرس تربويًا   في مؤهله ومثقفًا ونابغًا في مجال تخصصه وعمله .. ونحن نجري له الاختبارات اللازمة للتأكد من ذلك..

_ولكني .. أطمع في مساعدتك .. فأنا في حاجة إلى الوظيفة .. حتى لا أسأل الناس إلحافًا .. فلقد كان زوجي رحمه الله يمتهن العمل الحر ولقد توفاه الله في الآونة الأخيرة ولدي ولد وبنت ما زلوا في المرحلة الابتدائية..

_فقالت أسيل وقد عطفت على حالها ورأفت بنفسها .. لا تقلقي .. سأساعدك بعون الله .. وسأصدر قرارًا نهائيًا بتوظيفك في المدرسة دون تقديم طلبات أو إجراء اختبارات وغيرها من الأمور الروتينية المعقدة .. ولكن إن امتهنت بالتربية والتعليم فأي مادة ستدرسين؟

_فأجابت على الفور. سأقوم بتدريس مادة التاريخ .. لأني أعشقه وملمة به وبحقبه وعصوره وفروعه منذ عصر الفراعنة حتى تاريخنا في الوقت الراهن.

_فانفرجت ابتسامة على شفة أسيل ثم قالت. ما اسمك؟

_رحمة نبيل.

_سعيدة جدًا بمعرفتك.

_أدام الله الود بيننا .. وأنا أسعد بالتعرف على شخصية مبجلة خلوقة مثلك.

_فبسطت أسيل يديها لتصافحها وهي تقول لها .. تعالى غدًا بإذن كي تستلمي عملك بالمدرسة.

_فمدت رحمة يديها هي الأخرى وهي في أوج الغبطة؛ لأنها وجدت ما تهفو إليه وتناضل من أجله لردح من الوقت فلقد تقلدت أخيرًا وظيفة مرموقة بمدرسة مرموقة لها صيتها ومكانتها في هذا الحي الراقي الذي يقطنه رجال الأعمال، والشخصيات العامة، والموسرون الحال، والأثرياء وأصحاب الجاه والنفوذ من سفراء، ووزراء، وأطباء، ومحامين، وأساتذة جامعة رفيعي المستوى و ذائعي الصيت ..

وبينما كانت رحمة تصافح أسيل في ود بالغٍ استبان لها السوار ذو الرونق المميز .فقالت وهي مأخوذة بسحره .. ما أجمل هذا السوار إنه على الطراز الفرعوني .. ولا يفرق أي شيء عن السوار الفرعوني الأصلي. فصانعي هذا السوار يستحق وسامًا على تلك الحرفية المتقنة إنه صانع على درجة عالية من المهارة والحذاقة. من أين ابتعت هذا السوار الرائع؟

_فأجابت بلجلجة وقد بوغتت بهذا السؤال فقالت بعد لحظات من التفكير. ابتعته من مول بجوار سكني..

_يا جماله الرائع الفتان. هل لي أن أراه. أرجوكِ أعطينه إياه أشاهده عن كثب.

_ففوجئت أسيل بهذا الطلب أيضا وقالت وهي متلعثمة ومضطربة .. اعتذر لكِ.. إنه مغلق بطريقة معينة ولا أستطيع فكه.

_وهو كذلك .. ولكن ارجو أن تلتمس لي العذر على فضولي وتطفلي بهذا الشكل .. فأنا شغوفة جدًا بالآثار الفرعونية .. وعندما أرى أي شيئًا منها أو شيئًا يماثلها .. يسلب عقلي في الحال وتصابني ما يشبه اللوثة.. هل تعلمين أنني دائمة التردد على المتاحف والمعابد والمناطق الأثرية بين حين وآخر. وأقوم بزيارة المتحف المصري باستمرار، فنفسي تواقة إلى مشاهدة تلك الآثار العجيبة الخالدة المبدعة .. وعندما تقع عيني على جمالها وروعتها لا يسعني سوى القول .. سبحان الله القادر على كل شيء الذي علم الإنسان مالا يعلم.

_.يبدو أنك على درجة عالية من الثقافة والمعرفة والاطلاع.

_نعم. وإلى جانب كل ذلك فدراستي كانت عن الآثار الفرعونية والتاريخ الفرعوني. إنني احفظ تاريخ الأسرات وحقبهم وأسماء الملوك والملكات والأعمال والمهام التي قاموا بها عن ظهر قلب..

_بارك الله فيك.

_أنا دائمة التفكر والتأمل .. ففي الوقت الذي كان السواد الأعظم من العالم يعيش في الكهوف والخيام كان أجدادنا الفراعنة يقيمون أعظم حضارة في التاريخ. وقد كانوا على دراية كبيرة بالعلوم من فلك وطب وكيمياء إلى جانب فنون الصناعات، والإنشاء، والبناء، والرسم، والزخرفة..

_وأين نحن من ذلك؟

_الأمل دائمًا يراودني بأن الغد سيكون أفضل بمشيئة الله.

_اللهم آمين.

٢٠

وذات يوم جاء رجل في أواخر الأربعينات من عمره حسن بسن ذات هندام أنيق طويل القامة مشتعل الرأس شيبا وتلوح على وجهه رفعة السلوك ودماثة الخلق والمكانة الراقية والشأن العظيم، فدخل مكتب أسيل وبرفقته طفل في العاشرة من عمره جريح الوجنتين ومتمزق الثياب ومرهق البدن، فذعرت أسيل عندما رأت الطفل بتلك الحالة وتحفزت في جلستها وقالت على الفور. ما الذي دهاك؟

_فأجاب الطفل وهو يبكي وينحب .. لقد ضربني صدام ولطم وجهى ولكزني في صدري وركلني بقدمه في بطني وخمش وجنتي بأظافره الحادة الطويلة.

_فقالت بلهفة شديدة .من هو صدام الذي فعل بك هكذا ؟.. هل هو إنسانًا مثلنا؟

_رد الرجل الذي يرافق التلميذ الجريح. نعم إنه من بني البشر ولكن ليس مثلنا.. لقد اتصل بي عمار وهو يئن ويستغيث فهرولت إلى المدرسة كي اتحسس الخبر فوجدته بهذا الشكل المؤسف.

_وهل أنت والده؟

_لا بل خاله .. فوالده مغترب خارج البلاد .. وأنا أتولى زمام أموره.

_لا بأس عليك يا عمار .. فسأحضر هذا التلميذ المشاغب إلى هنا .. وأوافيك حقك على الفور.

فجلس الخال برفقة عمار على أريكة بالمكتب وراح يضمد جروحه بحذاقة .بينما اخطرت أسيل شئون المدرسة بما حدث فتم استدعاء صدام، فجاء إلى مكتب المديرة توا والتبلد يتملك قلبه والنزق يطمس عقله والشغب يدثر نفسه، فمثل أمامهم غير عابئ بالجريمة التي اقترفها في حق زميله فقال بصلابة وخشونة .. نعم

_ ما الذي فعلته بزميلك؟

_لم أفعل شيئًا .. لأن هذا جزاء من يخالف أوامري .. فلقد أمرته أن يترك مكتبه لي ويجلس بمكتبي ولكنه أبى ورفض .. فآثار ذلك غضبتي .. فثأرت لكرامتي.

_نهضت أسيل و الذهول يستحوذها فهي لا تصدق أن تلك الكلمات الجافة الغليظة تصدر من طفل في العاشرة من عمره .. ثم قالت بانفعال شديد.. كرامة وثأر .. وغضب .أين نحن بالله عليك ؟.. نحن يا بني بمدرسة راقية محترمة محراب العلم والتعلم ولسنا في حرب شوارع..

_فأجاب الطفل بغلظة .. لا يهمني شيء سوى الثأر لنفسي كما علمني والدى..

_والدك.. من والدك.. والدي كارم الفحل .. ألا تعرفيه.

_لم أسمع بهذا الاسم من قبل. على العموم .. عود الان إلى بيتك فلقد تم فصلك أسبوع من المدرسة واستدعاء ولي أمرك..

_فنظر إليها شزرًا ثم.. انصرف متذمراَ.

فالتفت أسيل إلى خال عمار وقالت له.. إني آسفة لما حدث .. وبالنسبة لهذا التلميذ المنحرف المعوج فسوف اتحدث أولًا مع ولى أمره وإن تكرر هذا السلوك الأهوج فسيتم فصله نهائياَ من المدرسة، وبالنسبة لعمار فسأقوم بعلاج جروحه على نفقتي الخاصة، لأنني المسئولة عن ذلك، فلقد حدثت الواقعة بمدرستي أثناء فترة الدوام.

_فقال خال عمار بترفع .. أشكرك يا أستاذة على حسن خلقك.. أما بالنسبة لعلاج عمار .. فاتركي تلك المهمة لي .لأنني طبيبٌ ماهرَ..

_حقا.. ما شاء الله.

_و استشاري في الجامعة أيضًا.

_بارك الله فيكِ وحفظكِ وزادكِ من فضله.

_أنا سعيد بمعرفتك.. فشقيقتي شاهنده .. فقاطعته قائلة:،

_هل حضرتك شقيق السيدة شاهنده.. إنها سيدة محترمة وفاضلة. نعم العائلة الموقرة عائلتكم.

_أشكرك جدًا.. شقيقتي شاهنده دائمة الثناء عليك وعلى أخلاقك الحسنة وكرمك وجودك معها ومع التلاميذ و أولياء الأمور. وبالفعل لقد ثبت لي أنها محقة في الإشادة بخلقك الرفيع..

_أقرأها مني السلام .. ولا تخشى شيئاً .. فسيكون عمار بمأمن ونصب عيني دائمًا بإذن الله.

_نسيت ان أخبرك باسمي.. شهاب الدين علوى.

_فرصة سعيدة.

_ثم تأهب للمغادرة وهو يقول. أستودعك الله.

ثم انفتل شهاب بصحبة الطفل عمار فدنت رحمة من مكتب المديرة والقلق يساورها فلمحتها أسيل فنادتها على الفور فمشت إليها فقالت لها أسيل .. ما خطبك.

_أخشى عليكِ من بطش عائلة صدام.

_هل تعرفين عائلة صدام؟

_نعم .. إنها أخطر تنظيم عصابي بالمحافظة .. فوالده أكبر تاجر للمخدرات. ووالدته تم تنفيذ حكم الإعدام فيها جراء قتلها لجارتها

بسبب أنها تلصصت عليها وهي تهرب الممنوعات.. أما كارم الفحل فيكيفك الله شره ويحفظك من بطشه .. إلى جانب تجارة المخدرات يقوم بقطع الطرق وسرقة السيارات في أوقات متأخرة من الليل .. ولا يهمه أحد والقتل عنده أمر هين وبسيط مثل وخز الإبر. إنه هارب من أحكام عديدة والشرطة تجري البحث عنه دوماً، ولكنه لديه حيل خطيرة ووسائل عديدة تمكنه من الفرار والهرب..

_فقالت أسيل وهي متبرمة .. لماذا لم يخبرني أحد بهذا الخطب الجلل.؟

_هنا الجميع يخشى من الاحتكاك بهذا الطفل المارق لأن عواقب ذلك ستكون وخيمة. وأحب أن أعلمك أن صدام قد اجترح العديد من أعمال العنف والشغب مع تلاميذ آخرين ولكن بعض المدرسين يتكتمون على الأمر خشية من شرور والده المجرم العتيد.

_ابتسمت أسيل وقالت بصمود وحزم .. يفصل هذا التلميذ نهائياَ من المدرسة.

_لكن أخاف عليك من جبروت هذا التنظيم العصابي العاتي.

_أنا لا أخشى غير الله.

وعندما تم فصل صدام وإخطاره بذلك جاء كارم وهو يرغى ويزبد ويتوعد، فدخل مكتب المديرة وهو باسر كالح بدون استئذان أو

تحية أو سلام.. وقال بصوت أجش مخيف.. من تكوني يا هذه حتى تجسري وتقدمي على فصل ولدى من المدرسة.

_ أكون المديرة مالكة المدرسة أسيل عبد البر.

_سأجعلك تندمين على فعلتك النكراء هذه.. أنتِ حقًا مسكينة لأنكِ تجهلين من أكون؟!!

_أنت شخص خارج عن الدين والقانون.

_ أمدركة أنتِ لهذا اللغو الذي تتلفظين به؟!!

_اخرج من هنا .لا أحب أن أرى مجرمًا عتيدًا خبيثًا بمكان التربية والتعليم. التربية قبل التعليم وقبل كل شيء.. وولدك المدعو صدام يفتقر إلى التربية والأخلاق وكل الشيم النبيلة والقيم السامية.

_اخرسي وإلا قطعت لسانك..

_أفعل ما شئت .. إنك ضعيف .. ضعيف جدًا .. لا تقدر على شيء.. سوى رفع السلاح في وجوه العزل والمستضعفين. ما أهون ذلك.

_فأجاب ونيران الغضب تصلى سريرته .. أنتِ مقضية عليك بلا جدال. ولكن لن أقتلك مرة واحدة .. فسوف استهل الأمر بقطع لسانك السليط البذيء .. ثم أمزجك إربًا إربًا حتى يبرد لهيب غلي وتخبو نار سخطي.

_فابتسمت أسيل بسخرية ثم قالت.. ألم أخبرك أنك ضعيف .. تمنياتي لك بالهلاك والفناء العاجل حتى ترتاح البشرية جمعاء من أذيتك وضررك وشرورك وموبقاتك وجرائمك.

فخرج كارم وهو يتوعدها ويقول لها .. أجزم لكِ أن شمس الغد لن تشرق عليكِ.

فأجابت وهي على يقين .. أقسم لك أنه عندما يغشى الليل الكون فستكون من تعداد القتلى.

وعندما أشرقت شمس اليوم التالي، وذهبت أسيل إلى عملها ألفت رحمة تنتظرها بالمكتب وهي قريرة العين وبشة الوجه. فبادرتها بالحديث وهي تقول .ألا تعلمين ما حدث البارحة؟

_لا أعلم شيء.

_كارم المجرم الخطير قد قتلته الشرطة بالبارحة.

_كنت أعلم ذلك .. لأن الجزاء يكون دائمًا من جنس العمل .. اخبريني بالتفاصيل.

_تم إخطار أجهزة الأمن بوجوده في حي المعادي يحوم حول أحد الشوارع.

_عجباَ إنه الحي الذي أقطن به.. يبدو أنه قد بيت النية لقتلى وتنفيذ تهديده ووعيده، فتربص بي حتى عودتي من عملي وحام

حول محل إقامتي وهو عاقد العزم على قتلي ولكن العناية الإلهية أنقذتني ولله الحمد .. إن ربك لبالمرصاد..

_من يعيش في رحاب الله يحفظه الله من كل سوء ويجعل له من كل ضيق مخرجاً ..

_ونعم بالله. ما الذي حدث بعد ذلك؟

_فاستطردت قائلة .. وعندما تم ضبطه وهمت الشرطة للقبض عليه بادر بإطلاق النار عليهم وتبادل إطلاق النار معهم فكانت مغبة ذلك أنه خر صريعاً في الحال إثر عدة طلقات من الرصاص اخترقت نياط قلبه.

_الحمد لله أنه عجل بنهاية هذه المجرم ورحم البشر من سمومه وشروره.

٢١

وبعد بضعة ايام جاءت شاهندة وهي منتاشة إلى مكتب المديرة، فنهضت أسيل من جلستها ورحبت بقدومها وطلبت لها كوبًا من القهوة، فجلست شاهندة على مقعد قبالتها وقالت وهي تحتسى القهوة .. الموضوع بلا مقدمات و بلا مماطلة وألفاظ مقحمة .. أخي يريد أن يتزوجك.

فبوغتت أسيل واحمرت وجنتيها خجلًا وحياءً ثم قالت بلجلجة وهي مرتبكة .. ماذا؟

_أخي الدكتور شهاب الدين استشاري جراحة القلب، وكان يعيش سلفًا في فرنسا ثم جاء أخيرًا إلى مصر منتويًا الاستقرار بها والإقامة فيها أبدًا.. ما رأيك؟

_لجت أسيل في فكر عميق ثم قالت .. ولكن.. ؟؟

_فقاطعتها .. لا تبوحي بشيء .. حتى تجلسين معه وتتعرفين عليه أكثر .. سيحضر إليك غدًا بمشيئة الله.

_وهو كذلك.

وفي الغد حضر شهاب وهو في أحسن الهندام ثم جلس يتحدث إلى أسيل في استفاضة ويقول.. توفت زوجتي منذ ثلاث سنوات ..

كانت رحمها الله زوجة طيبة ووفية ونقية القلب. ولكنها كانت عاقرًا فصبرت على هذا الابتلاء وحمدت الله وشكرته .. فلم أر منها أي تأفف أو كلمة اعتراض.. أو لحظة ندم مثل ما يحدث مع أغلب السيدات اللاتي يحرمن من نعمة الأمومة.. بل كانت راضية مرضية بقضاء الله سبحانه وتعالى .. صابرة محتسبة أجرها وثوابها عند خالقها .. وكم من مرة حضضتني فيها بضرورة الزواج بأخرى حتى يكرمني الله بالذرية الصالحة .. فرفضت ذلك ولفظته بشدة. فلم أتأفف أنا الآخر من الحرمان من النسل والأولاد بل صبرت معها صبرًا جميلًا، وحمدت الله على أنه أنعم على وأكرمني بزوجة صالحة مخلصة ذات عقل راجح حصيف وقلب تقي نقي. عشت معها خمسة عشر عامًا لم أستشعر في لحظة قط بأي ضجر أو ضيق .. فقد كانت تسهر من أجل نومى.. وتشقى من أجل راحتي.. وتبذل كل جهدها من أجل هنائي وسعادتي .. فلم تكدر حياتي مرة قط .. إنها كانت ندرة عصرها .. وهذا الذي جعلني ارفض الزيجة بأخرى.. لأنني لن أجد من تناظرها.. حتى خددها المرض العضال فعندما حانت ساعة رحيلها أوصتني وناشدتني بالله بضرورة الزواج ومواصلة الحياة وألا أحزن أبد على وفاتها .بل أدعو لها بالرحمة والمغفرة.. وأعيش حياتي الطبيعية وأمارس عملي بكل سكينة ورضا..

_نعم الزوجة هي .. هي حقًا نادرة .. من الصعب أن تجد من تماثلها في إيمانها ويقينها وخلقها الحسن.

_لكنى وجدت ولله الحمد. لن أجد أفضل منكى زوجة لي.

_لكن لست مثلها أبدًا .. بل أنا إنسانة مثل سائر البشر

_أنتِ متواضعة جدًا.. ما رأيك في أن تشاركني الحياة

_امهلني وقتًا كي أفكر واستخير ربي.

_وهو كذلك.

استشعرت أسيل براحة عارمة تنسكب في جوانحها، ورضا شديد يغلف قلبها، وقناعة تدثر عقلها، فوافقت على الزيجة وهي متأملة ومتدبرة فناجت نفسها وقالت. سبحان الله مغير الأحوال من حال إلى حال. سبحان الله القادر على كل شيء.. سبحان الله القدير .. إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون.. كنت بالأمس القريب امرأة بائسة فقيرة معدمة قليلة الحيلة مغلوبة على أمرها. وكان عمى يرغمني على الزواج بتاجر المواشي الجاهل .. وغصني بقوله .. أنني لن أجد زوجًا غيره يرضى بي وبظروفي الصعبة .. أين أنت يا عمي لترى كرم الله وفضله على نفس مستضعفة عاجزة .. لقد حابني الله بزوج صالح ذي مكانة مرموقة وشأن عظيم بالمجتمع.. زوج من أندر الرجال المحترمين. ليتك تكون على قيد الحياة لأعلمك بكرم الله وفضله الواسع على ابنة أخيك المطلقة. لكني لا أعلم عنك شيء .. فقد تكون قضيت نحبك تحت أنقاض بيتك .. وقد تكون قد نجاك الله .. لا أدري ماذا يكون شأنك الآن. هل من الأحياء أو

الأموات. وأتمنى أن تكون من الأحياء .. وإن كنت من الأموات فأشهد ربي العظيم أنني سامحتك وصفحت عنك .. وأرجو أن تسامحني أنت الآخر.

وعندما أزف وقت عقد القران ودعت أسيل صديقتها رحمة والمدرسين بمدرستها .. وكانت برفقتها شاهنده والطفل عمار الذي كان يرتع ويمرح في فناء البيت بصحبة لين وهما في ذروة السعادة والبهجة والبراءة، أخبر شهاب أسيل أنه يريد إخبارها بأمر هام قبل عقد القرآن. فدهمها القلق فجلست وهي مضطربة تسمعه بإصغاء بينما تحدث بصوت هادئ وثبات وقال.. نسيت أن أخبرت أنني كنت متزوجًا قبل المرحومة .. فلقد تزوجت من فتاة كانت زميلتي بالجامعة بعد الامتياز مباشرة .. وانجبت بنت وأسميتها بسنت أحببتها كثيرًا فلقد كانت قرة عيني ومهجة فؤادي .. ولكن أمها غدت صعبة المراس دائمة الشجار معي بسبب وبدون .. كان لديها طموح السفر .. لكني منعتها من ذلك ودعوتها أن تربى ابنتها وترعي شئونها .. لكان مع مرور الوقت احتدمت الأمور تعقيدًا وصعوبة واستحالت الحياة إلى جحيم فلم نطيق ذلك وتم الانفصال.. وبعد ذلك. توفت ابنتي الصغيرة التي كان عمرها آنذاك الثالثة، وتم دفنها دون علمي ولم أحضر تشييعها إلى مثواها الأبدي أو إلقاء النظرة الأخيرة على وجهها البريء.

_فقالت اسيل وهي آسفة .. ولماذا لم تعلمك أمها بأمر وفاتها؟

_لأنني كنت في بعثة للخارج لمدة ثلاثة شهور. وبعد عودتي من السفرة فجعت نفسى بتلك المصيبة. فلم أقول غير .. إن لله وإنا

إليه راجعون. فلقد كنت رابط الجأش ورضيت بقضاء ربي بكل إيمان ورضا.. لكن ما أحزنني هو أنها ماتت بسبب إهمال أمها لها .. فلقد كانت طيلة الوقت مستغرقة في عملها الدائب بالمشفى. فداهمت الحمى بسنت ولم تجد من يرعاها ويسهر على تطيبها وعنايتها وكان مغبة ذلك أنها فقدت حياتها.. ثم تنهد تنهيدة طويلة وقال.. قدر الله وما شاء فعل..

لقد بحت لك بكل ما أضمره في نفسي واحتفظ به حتى لا يكون بيننا أية أسرار. لأن الزواج القائم على الصدق والشفافية والوضوح سيكون له البقاء وسيتوج بالنجاح بإذن الله.

فباحت له أسيل بكل أسرارها وما حدث لها محن في السنوات المنصرمة ونبأ طليقها .. والطفلة التي تكفلها بالبيت. ولكنها لم تكن شجاعة بما يكفى لتخبره بأمر السوار المدمر وما خلفه من مصائب ونوازل. فلقد أسرت هذا السر الخطير في نفسها خشية أن تخسر هذا الزوج المحترم وألا تتم تلك الزيجة السعيدة. فحبست سرها في سويداء قلبها وأوصدت عليه بالمغاليق..

وتمت الزيجة بسلام وهدوء، وبارك الجميع لهما داعين الله أن يمن عليهما بالسعادة والخير والوفاق. أما شاهنده فلقد سافرت للخارج برفقة عمار ولدها بعد أن أرسل لها زوجها المغترب دعوة للسفر للبلاد المقيم بها..

٢٢

خيمت أجواء من الهدوء والسكينة والمودة والرحمة على مملكة أسيل الصغيرة التي تقطن فيها برفقة زوجها ولين ابنتها التي تكلفها، فلقد أبت أن تسكن في بيت زوجها وتترك بيتها الوسيع، فلبى لها زوجها رغبتها، وظعن في فيلتها آمنًا مستقرَا سعيدًا، وبعد أن خرج شهاب إلى عمله بكلية الطب، فتحت أسيل خزانتها كي تتفرج وتملي عينيها ببريق شبكتها النفسية الغالية حيث قبضت يديها على قلادة ذهبية مطعمة بالياقوت ومرصعة بالماس وهي تقول في تأمل.. هذه القلادة هي أغلى شيء عندي. ليس لأنها باهظة الثمن؛ بل لأنها هدية عزيزة من شخص عزيز.

وبعد بضعة أيام عادت أسيل الكرة وفتحت الصندوق وهلة أخرى حتى تقر عينيها بالشبكة الثمينة .. ولكن .. هذه المرة أسخنت عينيها وكمدت نفسها عندما ألفت الصندوق فارغا خاليا وقد اختفت منه القلادة فاستخرطت في البحث والتفتيش عنها في كل بقعة من الفيلا فلم تجد لها أثرَا .. وعندما سئمت من البحث الدائب المستميت بلا جدوى أجمعت العاملين لديها، فحضر حارس الفيلا والمربية والطباخ وعاملة النظافة من فورهم ومثلوا أمامها والقلق يرفرف على وجوههم، فقالت لهم في صلابة وشدة.. من منكم أخذ القلادة المرصعة بالماس؟

فخيمت سحابة من الصمت على سمتهم فكررت سؤالها الشائك وكرروا جوابهم الصامت..

فقالت لهم في سخط شديد. هذه أغلى شيء عندي لأنها شبكتي.. وزوجي الآن في عمله ولم يعلم شيئًا بعد عن هذا الأمر .. وإن علم فسيحزن كثيراَ.. أرجوكم لا تحاولوا إغضابي أكثر من ذلك. فسوف أسامح من سرق القلادة إذا ردها إليّ..

فلم يجيبها أحد.. فتملكها الغيظ وسرى الغضب في أوصالها فقالت.. الآن سأعرف من أخذها .. ولكن لا تلوموا بعدها غير أنفسكم لأن سيحدث ما لا يحمد عقباه.. فلتشل يد من أخذ القلادة.

فانكب الحارس على وجهه وقد حاقت به حالة من الشلل النصفي .. فطوقه الجميع وهم مندهشون ومذهولون.

فقالت أسيل للطاهي .. أطلب له الإسعاف فوراً..

تم نقل الحارس مسعود إلى المشفى، وبعد أن تم إسعافه وتلقى علاجه وتحسنت حالته قليلا، هرعت أسيل إليه وكانت زوجته تلازمه، فعندما رآها مسعود أطرق بصره وهو محزونًا ومبتئسًا..

فقالت له أسيل بشجب بالغ.. لم أصدق أنك سرقت القلادة. أنت كنت آخر شخص أظن فيه هذا الظن السيء. لأني كنت أراك صالحًا وتقيَا وتخاف الله عز وجل وتؤدى الفرائض.. ولكن.. لا بأس.. فربما

كنت بحاجة إلى المال. والآن أعطيني القلادة .. وسأعفو عنك ولن أقوم بإبلاغ الشرطة..

فقال مسعود بصوت خافت وهو يئن من حالة إعيائه الشديدة.. سيدتي .. لا تظلميني أرجوك .. واتركي لي فرصة للدفاع عن نفسى..

_تفضل.. إني أصغى إليكِ.

_في بكرة هذا اليوم استيقظت من النوم كعادتي، وأخذت المنضحة كي أروي الزهور، وبينما كنت في الطريق إلى مرج الأزهار توقفت فجأة عند شجرة الصفصافة حيث استلمحت شيئا ما يبرق ويلتمع بجانب جذرها فانحيت فرأت عيني قلادة نفيسة الثمن، فحملتها وفكرت فاستنبطت أنها ملكًا لكِي. فهممت إلى الداخل كي أردها إليكِ.. ففوجئت بكِ والغضب الشديد يستحوذك.. وتزعمين أن القلادة سرقت منك .. فارتبكت واضطربت نفسى وتلبطت في أمرى. فكنت في حيرة .. ولم أحسن التصرف. فإن اخبرتك بما حدث فلن تصدقيني. فالتزمت الصمت ريثما أجد حلا.. فبوغتت بما حدث.

ثم أخرج القلادة من جيب الصدار الذي كان يرتديه وبسط يده إلى أسيل. وهو يقول لها .. تفضلي قلادتك .. وأقسم لك أن ما رويته هو الحق والحقيقة. فأخذت منه أسيل القلادة وهي شاردة. فغاصت في بحور فكرها فتذكرت أن ليلة أمس كانت في عرس أحد

معارف زوجها برفقة شهاب ولين .. ولقد ثابوا في الهزيع الأخير من الليل. حيث قد هجعت لين في السيارة، فحملتها في رفق وحنان ودلفت في الحديقة وعند شجرة الصفصافة استشعرت بأن شيئًا ما يسقط من جيدها، ولكنها لم تكترث من فرط إرهاقها ونصبها من وعثاء الطريق حيث كان العرس في بلدة بعيدة، فلم تبحث عن الشيء الذي ضاع منها، فكان كل همها أن تضع صغيرتها في مخدعها حتى تهنأ بالنوم والارتخاء والخلود إلى الراحة..

فقالت أسيل وهي نادمة .. أنت على حق.. أستمحيك عذرًا أيها الرجل الصالح .. فلقد ظلمتك. أرجو أن تسامحني..

_فأجاب الحارس.. فليسامحنا الله جميعًا.

_سأتكفل بنفقات علاجك حتى يشفيك الله العظيم.. ولن أتوانى في ذلك. هذا المشفى هو ملك لطبيب يكون صديقًا لزوجي. سأطلب لك خيرة وصفوة الأطباء حتى يكرمك الله وتبل من مرضك .. وأما بالنسبة لزوجتك وأولادك فسأغدق عليهم وسأطلي بهم وأتولى رعايتهم ريثما تتحسن حالتك الصحية..

_جزاك الله خيراَ يا بنتي.

فقالت زوجته. جعله الله في ميزان حسناتك يا صاحبة القلب الطيب والخلق الرفيع.

ثم ثابت أسيل إلى فيلتها والندم يكاد يقتلها ويفتك بفؤادها، فانهطلت دموعها لعل وخزات ضميرها القارصة تهدأ قليلاً، ولكنها لم تهدأ أبدا بل استزادت في التأنيب والعذل واللوم بغير رحمة، فودت أن تكون حفنة من التراب أفضل لها من أن تكون عاصية مذنبة تتسبب في أذى الأبرياء والمساكين والمعترين.

فناجت نفسها وقالت .. إن سامحني هذا الرجل المسكين فلن أسامح نفسي أبدًا. ثم عافرت من أجل خلع السوار من معصمها وهي تقول. ليت هذا السوار اللعين يتركني لشأني ويخلع من معصمي..

وفجأة تذكرت البردية وأنها لم تقم بترجمتها كاملة بل تركت حوالى سطر أو سطرين .فهرولت إليها لعلها تجد في هاتين السطرين ما يساعدها على نزع هذا السوار المدمر من يدها .. فأحضرت البردية واعتكفت في حجرة نائية بالفيلا مخبرة زوجها الذي عاد من عمله وتناول عشاءه أن الديها الكثير من الأعمال المدرسية الهامة تود انجازها الليلة، فأوصدت الحجرة عليها وراحت تجتهد في ترجمة بقية البردية بعد الاستعانة بالمراجع والقواميس. وفي غلس الليل انتهت أسيل من الترجمة وانتهى معها أملها في الحياة..

فخفق قلبها وابتسر لونها وارتعدت أطرافها وانثالت عليها المخاوف كسيل مدمر، فجلست القرفصاء وألقت بالبردية بعيدًا وضربت رأسها بالجدار وهي تقول بلا وعي .. لا .. لا .. لا.. لا

حتى لجت في عويل حاد..

وعندما بزغ الفجر لم تفتأ أسيل على حالها الحائر البائس، فاتجهت إلى الشرفة بعد أن انقطعت الدموع من مقلتيها وكأنها قد تجمدت أو تحجرت أو نفدت من ديمومة انهمارها، ورمقت بلجة الصبح في تفكر وتدبر وتأمل وهي تقول. قد يكون هذا هو اليوم الأخير. قد يكون هذا هو آخر صباح.

.. لكني أستحق هذا العقاب .. أستحق هذا الجزاء.. أستحق تلك النهاية..

لم يكن هذا الشعور القارص مجرد واجس جاش في خاطر أسيل بل كان نتاجًا لما ترجمته من بقية البردية حيث قد اجتهدت في ترجمة الآتي

فقالت الملكة سويك للكاهن. أخشى بعد وفاتي أن يسرق السوار ويستعمل في الدمار، والخراب، والويلات.

أجاب الكاهن. فلتطمئن الملكة. فالسوار قد صنع لكِ وحدكِ .. وسيكون الهلاك والفناء جزاءَ لمن يجسر على ارتداء سوار الملكة..

٢٣

راحت تنتظر الموت في الغدو والآصال تفكر دومًا بقلب منقبضًا خافقًا وتتساءل في حيرة وتوتر كيف ستقضى نحبها، هل في حادثة سيارة ؟، أم في حادث حريق ؟، أم غرقاً في النهر كم يتراءى لها في أحلامها المخيفة؟،فتلجأ إلى الله بالابتهال والضراعة والرجاء أن يميتها ميتة طبيعية ويكفيها شر الحوادث والكوارث.

طفقت تعد الساعات والدقائق والثواني، فيمضى يومها بسلام وأمان، وهي مازالت من الأحياء فتسجد لله شكراَ، فمضى يوم آخر، وهي ما برحت على قيد الحياة فلم تصدق، وتخوفت من الغد واجتاح سريرتها الهول والوجل وفكرت وهمست إلى ذاتها .. ربما يكون الغد.

فجاء الغد وانقضى ولم تلقى حتفها بعد .. حتى انقضى شهر بأكمله وهي بكامل عافيتها وصحتها. فتقلصت هواجسها وخفتت مخاوفها وعاودتها السكينة. وانشغلت بأمورها الدنيوية ومسائلها الحياتية حتى تناست شبح الموت الذي يطوف حول حياتها ويكدر صفاء نفسها ويتربص بها ريب المنون، وتناست أمر السوار وتوابعه المدمرة الخبيثة. وتذكرت أن لديها ابنة بحاجة إلى الرعاية وزوج في حاجة إلى الاهتمام..

وذات يوم كانت جالسة على سفرة الطعام بصحبة زوجها وابنتها لين .. وبغتة رن هاتف شهاب الخلوي .. فخيم القلق على محياه وانزعج عندما رنا إلى رقم المتصل، فحمل الهاتف على عجل وغادر المكان بأسره والاضطراب يهيمن على ذاته .. فلاحظت أسيل ذلك .. وليست هذه المرة الأولى التي تستلمح فيها ارتباكه وتوتره، ففي الآونة الأخيرة كان هاتفه لا يتوقف عن الرنين، و عقله لا يتوقف عن الشرود والتفكير الدائب، فلقد تغير حاله كثيراَ حيث أنه يتغيب كثيراَ عن البيت دون أسباب مقنعة ويخرج في منتصف الليل بطريقة طارئة مباغتة مبرراً؛ ذلك لزوجته أن لديه حالات حرجة بالمشفى تتطلب الكشف العاجل والفحص الفوري، فلم تقتنع أسيل بذلك وارتابت لأمور زوجها، وجاشت الريبة بقلبها واستحوذ الشك لبها، فأصبحت تمترى في شأن زوجها وخبره فعزمت على التحقق من المراء الذي يخامر جوانحها، فانتوت على مراقبته وترصد حركاته والتجسس عليه وعلى مكالماته الهاتفية الكثيرة المتوالية وذات مرة تلصصت عليه وهو يتحدث في الهاتف في الخفاء فطرقت مسامعها كلماته التالية.

__لا تبكي يا عزيزتي .. فدموعكِ غالية عندي.

_سنجد حلًا بإذن الله قريبًا.

_سأخبر الجميع بخبر وجودك في حياتي في الوقت المناسب.

_انتظري هنيهة حتى أمهد لذلك واتدبر أموري.

_لن أخشى من أحد .. أنتِ عندي أهم إنسانة في حياتي.

_وهو كذلك سنتقابل غدًا بإذن الله في النادي الذي نتقابل فيه دومًا الساعة الخامسة مساءً.

وفي الغد في الساعة الخامسة إلا ربع استقل شهاب سيارته وانطلق، فتقفت أسيل أثره وسارت خلفه على مكث ومهل حتى لا يلحظ تربصها به، وأمام نادي وثير راقي شهير باللحى نزل شهاب من سيارته ودلف داخل النادي وأسيل تواتره وتتابعه خلسة، فاتجه إلى منضدة تجلس أمامها فتاة في ميعة الشباب وضاحة الوجه بهية الطلعة، فجلس شهاب قبالتها وهو مشرق الوجه ومبتسم الثغر، فترقبتهما أسيل من بعيد ولم تستطع سماع الحوار الذي دار بينهما، فتكتمت على الأمر وآثرت السكوت عما رأت حتى تتجلى الحقيقة وتتضح الخفايا، فهرعت إلى البيت وهي متسلحة بالحلم ومتذرعة بالجلد ريثما تتحقق من الأمر المثار للشكوك والظنون.

وفي اليوم التالي سمعت التالي من خلال حديث شهاب عبر هاتفه..

_ ستكون زيجة سعيدة بإذن الله.

_سنعلن عن خبر الخطوبة قريبًا.

_والآن دعينا نذهب إلى محل المجوهرات كي تختارين شبكتك النفيسة.

_ انتظريني غدًا بمشيئة الله في النادي الساعة السابعة مساءَ كي اصطحبك إلى محل المجوهرات .. وأختار لكِ الشبكة وخاتم الخطبة بنفسي.

_بارك الله لكِ وتمم هذا الأمر على خير.

تجشأت أسيل لما سمعته وتألمت كثيرَا، وكظمت غيظها حتى تتأكد من هذا النبأ المفجع في الغد ثم تتمنى ما تتمناه .. فمن يخونها يستحق كل الهلاك والويل.

وعندما دقت الساعة السابعة انطلق شهاب بسيارته وأسيل تتعقب تحركاته شيئًا بشيء والغل يصفد عنقها ويكاد يخنقها والصدمة تعتصر قلبها وتوشك على صرعها.

فرأته وهو يصطحبها من النادي ويفتح لها باب سيارته في ذوق رفيع وأدب جم. فاحتدم سخطها .. واشتد ضيقها .. وانتكست نفسها. ونبض قلبها العليل من هول الصدمة. فسارت خلفهما بسيارتها في تريث وتباطؤ حتى تأدوا إلى محل المجوهرات.. فركنت أسيل السيارة وهي مرتجفة الأيدي ومنكوسة الرأس وتعيسة الفؤاد، فتقفت أثرهما ودلفت خلفهما، فرأتهما من بعيد وقد دخلا

محل المجوهرات.. وعرض عليهما الصائغ بضاعته النفسية تباعًا حتى أعجبت العروس أخيرَا بشيء قيم،

وكان هذا الشيء هو خاتم الخطبة الماسي..

ومن هنا تأكدت أسيل من ظنها المريب، وتيقنت من شكها الرهيب وأصبح الهاجس حقيقة، وغدًا الاعتقاد أكيد، فاندلعت نيران الغيرة والحقد بقلبها، واستشعرت أن أقدامها لا تقدر على حملها فلجأت سريعًا إلى سيارتها وهي محبطة السجية محطمة القلب كسيرة الخاطر، وفي السيارة أماطت زجاج النافذة وزلقت زوجها ببصرها الخاسئ وهي تقول بلا وعى. وداعًا .. فربما تكون تلك هي المرة الأخيرة التي أراك فيها .. فالويل والهلاك لك أيها الخائن الغادر..

وآبت أسيل إلى فيلتها فلم تجد غير ابنتها فاحتضنتها في دفء وحنان كي تسرى عن نفسها المحزونة وتفرج عن قلبها المفطور وجلست في الشرفة تنتظر الخبر الذي تود سماعه بفارغ الصبر، لكنها فوجئت بعودة زوجها سالمًا معافًا. فناجت نفسها في حيرة وشحناء .. هل أبطل مفعول السوار وسحره الأسود؟.. كيف عاد شهاب بدون أن يحدث له أي مكروه.. ؟!!!.. فولج شهاب وأقرأها السلام.

فردت التحية بصوت خافت ناقم عليه.. فلم يلحظ امتقاع لونها ولا امتعاض سريرتها إذ كان أمر الفتاة يطغي على جوارحه ويأسر عقله ويحتل تفكيره .. فطلبت أسيل من الطاهي أن يعد لشهاب العشاء.

فقال لها شهاب.. لا داعي .. فلقد تناولت طعام العشاء بالخارج .. ثم خلد إلى مخدعه وغلبه الوسن .. وأسيل ماتزال متسمرة في شرفتها والغيظ يكاد يمزع بطانتها.. والغيرة تكاد أن تجعل فؤادها عصفا مأكولا .. . وبعد قليل رن هاتفه الخلوي فنهض من فوره .. وتحدث من خارج الغرفة وأسيل تتصنت على المكالمة فسمعت التالي.

_عزيزتي لا تقلقي.

_سأحضر إليك فوراً.

٢٤

خرج شهاب على عجل، واستقل سيارته في أديم الليل، ولم يخبر زوجته بأمر خروجه، فتجاهلها تماما وكأنها غير موجودة في حياته أما أسيل فلقد شارفت على الهلاك من حدة الغل الذي غلف قلبها، فاشتد حنقها عندما رأته يخرج دون أن يعلمها أو يبرر لها ما يفعله،

فلم تجد شيئا يروح عن نفسها إلا النظر إلى النجوم الساطعة المتناثرة في السماء،

وهي تتأمل وتقول. ما أجمل مناظركم .. وما أقبح أفعال البشر..

ليتني أصعد إليكم وأحيا معكم في سلام وصفاء بعيدا عن غدر البشر وهوان نفسى وفناء دنيتي.

حتى غشاها النعاس وهي جالسة على مقعدها بالشرفة، فاستيقظت مرتاعة على سماع صوت الهاتف الأرضي..

فكانت المكالمة كالتالي

_السلام عليكم من معي.

_نحن المشفى. هل أنتِ زوجة الدكتور شهاب.

_نعم.

_نعلمك يا سيدتي .. أن الدكتور شهاب يرقد في العناية المشددة في حالة حرجة جراء حادث أليم ألم بسيارته فقد اصطدمت بها سيارة أخرى.

أخذت أسيل عنوان المشفى وقادت سيارتها والأسى يتملكها فقالت مناجية نفسها .. هل انتقمت ؟.. هل ارتحت الآن ؟.. وماذا بعد ذلك ستبحثين عن شيء آخر يؤلمك حتى تبطشي به .. ومتى ستتوقفين عن هذا الحقد والحنق؟.. متى ستبرأين من علتك وتشفى من دائك المزمن؟.. كل الأمراض لها علاج إلا الحقد فليس له أي علاج ..

فتجيبها نفسها الثائرة المتمردة الغاضبة.. هل نسيت غدره بك وخيانته لك؟.. أنسيت أنك نفس ضعيفة مغلوبة على أمرها .. هل تودين أن تصفعك الظروف مرة أخرى مثلما حدث مع زوجك الأول؟.. هل تودين أن يسلب منك مالك وبيتك وكل ما تملكين؟.. هل تودين أن تتسكعين مرة أخرى بين شرفاء الناس ؟.. هل تودين أن تقعي فريسة بين مخالب الذل.. وضروس الهوان وهلة أخرى؟.. . فليذهب كل ما تسول له نفسه إلحاق الضرر بكى إلى الهلاك .. وتبقين أنتِ كريمة عزيزة ملكة متوجة..

_فترد على نفسها الهائجة.. هذا حوب وخطء. لست راضية عن نزعاتك البربرية و لا عن أهوائك الانتقامية.. أنا لست راضية عن نفسى على الإطلاق. لست راضية.. ليتني اتعلم العفو والصفح والتسامح..

وعندما وصلت إلى المشفى ركضت في اتجاه العناية المركزة .. فاحتدمت عكارة نفسها عندما وقع بصرها على الفتاة التي كان ينتوى الزواج بها ويقف كنفها شاب وامرأة يقومون بمواساتها وتهدأتها، فألفتها تقف على باب العناية وهي تستخرط في بكاد حاد وعويل شديد، فاتجهت إليها أسيل وهي في ذروة الغضب ثم قالت لها بزجر .. أنتِ .. أنتِ مرة أخرى .. ألم يكفيك ما حدث؟.. هيا أخرجي من هنا لا أحب رؤيتك على الإطلاق.

_فأجابت الفتاة بصوت تمتزجه الدموع.. اهدأي قليلًا من فضلك .. هل أنتِ زوجته أسيل.

_نعم زوجته المخدوعة .. اتعجب من أمرك .. فأراك فتاة في مقتبل العمر جميلة .ما الذي يرغمك على الزواج من رجل في سن أبيك .. هل من أجل المال ؟.. أم من أجل المركز الاجتماعي المرموق.

فردت الفتاة على الفور.. انتظري.. فلقد حدث سوء تفاهم. لقد فهمت الأمر خطأ.

_ماذا؟

_أحب أن أعرفك بنفسي أنا بسنت شهاب الدين .. أي ابنة الدكتور شهاب.

_فقالت أسيل وهي مشدوهة .. كاذبة .. فلقد أخبرني شهاب أن ابنته قد توفت منذ كان عمرها ثلاث سنوات.

_تعالي نجلس على تلك الأريكة لأشرح لك الموضوع بالتفصيل.

جلست أسيل وهي تمسح العرق الذي تفصد على جبينها بينما جلست بسنت تحكي بإسهاب وتقول.. عندما تم انفصال أبي عن أمي .. انتوت أمي على السفر خارج البلاد في بعثة دراسية .. وعزمت على اصطحابي معها فخشيت أن يمنعها والدى من ذلك .. فانتهزت فرصة غيابه خارج البلاد وأذاعت نبأ وفاة ابنتها بسنت جراء إصابتها بالحمى. ثم بعد ذلك سافرت بكل سهولة برفقتي .. واغتربت أنا وهي لسنوات عدة .وأعلمتني أنا والدى قد توفى. وعندما دنا أجلها وكانت على مشارف الموت كاشفتني بالحقيقة وأوصتني على العودة لمصر والبحث عن أبي وخالتي .فعدت على الفور.. وساعدتني خالتي_ تلك التي تقف بجانب باب العناية _على الوصول لأبي.. وعندما علم أبي أن ابنته لم تزل على قيد الحياة انشرح صدره وبلغت السعادة أوجها في قلبه .. فلم يجد جهدًا في شراء الهدايا لي واصطحابي إلى النزهات والرحلات، وذات يوم

أعلمتني خالتي بأن شاب جارها يريد أن يتقدم لخطبتي_ وهو الشاب الذي يقف بجوار خالتي عند باب العناية_. فقابله أبب فاطمئن له وأثنى على أخلاقه النبيلة وتمت الخطبة .. وفي تلك الليلة .. شعرت خالتي بدوار وهبوط مفاجئ فخشيت عليها واتصلت بأبي توا، وعندما أتى و فحص حالتها أخبرني أن ضغطها منخفض. ثم غادر البيت وعند ناصية شارعنا وقع هذا الحادث الأليم، فقمنا بنقله إلى هنا على الفور.

_فقالت أسيل والدهش يستحوذها .. لكني رأيته يختار لكِ خاتم الخطبة وحده.

_لو كنتِ ولجتِ إلى محل المجوهرات لكنتي وجدتي العريس جالسًا بجواري، لأن هذا المحل هو محل أبيه .. ولقد كان منتظرًا إيانا منذ برهة قبل مجيئنا إليه..

_فقالت بصوت أبح .. لماذا لم يعلمني والدك بهذا الأمر؟!!

_كان يمهد لذلك الأمر. وفي آخر مرة عندما كان لدينا بالبيت عقد العزم على البوح لكى بكل شيء في الصباح. لكن أعاقه الحادث عن ذلك.

فغمغمت أسيل .. بئس المرأة أنا .. ثم أطرقت والندم يطوقها والترح يتملكها .. فدعت الله أن يعفو عنها ويتوب عليها ويشفى زوجها .. حتى أذن الفجر. فخرج الطبيب من حجرة العمليات وهو كالح .فأقبلت بسنت عليه وهي متوجسة فقال لها بنبرة شجية .. لقد توفى جراء النزيف الحاد .. البقاء لله. فسقطت بسنت مغشياَ عليها.. فهلمت إليها خالتها لتشد من أزرها وكذلك خطيبها بينما جثمت أسيل على ركبتيها وهي مبتئسة كامدة نادمة .. فلم تسطع البكاء. وأني لها ذلك وهي السبب في تلك النازلة .. فنهضت من جثومها بلا وعب. وعدت وكأنها قد اعترتها لوثة.

٢٥

_ذهبت إلى صغيرتها فوجدتها تغط في نوم عميق فقبلت جبينها في هدوء وقامت باسدال الغطاء عليها في حنان دافق، ثم وقفت برهة ترنو إليها العيون بالدموع، فربتت على ظهرها في عطف بالغ وهي تقول لها .. الوادع يا صغيرتي .. الوادع .. الوداع يامن جعلت لحياتي معنى وقيمة.. الوداع يا مهجة دنيتي الزائلة.. وأمل فؤادي السقيم .. ثم خرجت خفافًا. واتجهت إلى غرفة المربية .. وبعد وقت وجيز .. اتجهت إلى غرفتها. فأضاءت الأنوار وأحضرت قرطاسًا وقلما .. وكتبت رسالة مكونة من بضعة أسطر ثم طوتها وأدخلتها في ظرف ودونت عليه من الخارج .. رسالة إلى ابنتي الغالية لين ثم وضعت الظرف على منضدة بمنتصف الحجرة. وترجلت أمام المرآة .. ورمقت نفسها بازدراء واستهانة .. ثم قالت. كنت دومًا ابحث عن أعدائي كي انتقم منهم .. فاكتشفت أن نفسي هي عدوي الأول والأخطر..

ثم أطرقت هنيهة بينما ترنمت إصداء تلك العبارة المميتة في خوالج نفسها.

وقد تلألأ السوار المدمر في معصمها كالشمس المتوهجة في وقت الهاجرة.

فقط أن تنظر الملكة لعدوها وتتمنى له الهلاك والفناء

وترددت هذه الجملة القاتلة في مكامنها كثيراَ .. حتى التاعت أسيل وضجرت ثم صاحت .. كفى .. لقد علمت ما ينبغي فعله .. ثم برقت ببصرها إلى نفسها في المرآة وقالت بلاوعي .. اتمنى الويل والهلاك لتلك النفس الخبيثة..

ثم تهيأت للخروج بعد أن استلت سكينًا حادًا من المطبخ.. فحدثها ضميرها بعذل.. ماذا ستفعلين ثانية؟

_أجابت. أريد أن أرحم البشرية من حقد نفسى الممتزج بدمار وويل السوار الذي لا يخلع أبدا من معصمي.

_وهل هذا هو الحل؟

_لا أرى حلًا آخر. فلقد تسببت في إيذاء رجلًا فقيراَ بريئًا .. ثم ظنيت ظن السوء بزوجي و تسببت بقتله.. ولا أريد أن أقتل أحدًا آخر.

_وهل ستهون عليك نفسك أن تقتليها؟

_إنها آثمة وتستحق كل ما يحيق بها من ظروف.

_ تمهلي قليلًا .. فربما تستطعين تقويمها وإصلاحها..

_حاولت مرارًا ولكنى فشلت. ولن أستطيع التحكم بغضبى والسوار اللعين بمعصمي.

_ستخسرين الدنيا والآخر. وتموتين كافرة.

_أطمع في عفو الله ورحمته ومغفرته..

قادت أسيل سيارتها وهي تهيم في فكرها الحائر، وتغرق في خضم عميق أمواجه من الندم الشديد وزبده من الحزن العارم فانطلقت بسرعة جنونية وهي ترجو أن تنقلب السيارة أو تصطدم بشيء صلد يودى بحياتها كي تستريح من الشقاء الواصب وينجلي عنها التأنيب الشديد حتى أخفقت في إنجاز ذلك فأوقفت السيارة على جنح النهر، ثم نزلت وهي راضخة لهمزات الشيطان وصاغرة لضعف الذات، فطوعت لها نفسها قتل نفسها، وتزلفت من النهر، فوجدت أحد الصيادين وبحوزته عدد من القوارب الخشبية البسيطة فقالت له. أريد أن استقل قاربًا وأقوم بنزهة في النيل وحدي.

_لكن يا بنيتي الوقت متأخر.

_أرجوك .. أشعر باختناق وضيق .. وأود الترويح عن نفسى بالتنزه على صفحة النيل الساحرة الخلابة..

_وهو كذلك .. اختاري لك قارب.

فقامت أسيل بتأجير القارب وركبت به وحدها واجتهدت في التجديف بالمجاديف الخشبية بصعوبة بالغة حتى عامت به في منتصف النهر فحملقت حولها فلم تر غير دهمة الليل الممتزجة بنور البدر البازغ في السماء، فنظرت بإمعان يمنة ويسرة شرقًا وغربًا حتى تيقنت من خلو النهر من الناس والخليقة، فلم يكن به أحد سواها، فقالت .. الآن هو الوقت المناسب. فأخرجت السكين الحاد من حقيبة يدها وقامت بالضرب بها على الخشب بقوة وبأس حتى تمكنت من اختراقه واحترامه وأحدثت به فجوة هائلة، وأعابت القارب بثقب كبير وترتب على ذلك غمر المياه لجوف القارب، حتى سجر بمياه النهر وامتلأ على آخره وأسيل قابعة فيه تنتظر لحظة الخلاص والنهاية، وماهي إلا بضعة ثواني حتى غرق المركب وغاص بالنهر، فكابدت أسيل ويلات الغرق وانسكبت المياه في حلقها ثم في أمعائها ثم غمرت جوفها كله حتى أصبحت على شفا الهلاك، فداهمتها حشرجة الموت ومرارة سكرارته، فاستشعرت في هذا الحين أنها ظلمت نفسها وأجارت عليها بتنفيذ حكم الإعدام غرقًا فيها بلا رحمة. فلم تجد ما يخفف عنها غير النظر إلى البدر الساطع في صفحة السماء، وابتهلت إلى الله بقولها .. لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. وظلت ترددها وتكررها وقتًا مليًا .. فشعرت بأن أضواء البدر البارقة تتقلص شيئًا فشيئًا وتخفت شيئًا فشيئًا حتى طمست نهائيًا وأختفى البدر وأصبح محاقًا، وعادت النجوم إلى كناسها ولم ير لها أثرا وأطفئت جميع الأنوار والأضواء وغدت الأجواء جميعها داهمة عاتمة حالكة السواد..

مضى يومين، فلاحظت رحمة تغيب صديقتها الوفية أسيل عن مباشرة عملها بالمدرسة وهذا ليس من دأبها حيث كانت بكامل النشاط والحيوية لا تتغيب عن العمل في يوم قط، فعندما انتهت فترة الدوام هرولت إلى محل إقامة أسيل كي تتحسس أخبارها، فلقد استشعرت قلقاً عارماً حيالها وخشيت أن تكون مصابة بوعكة صحية أو حاق بها ظرف طارئ عصيب، وعندما وصلت إلى الفيلا وجدتها ساكنة هادئة يخيم عليها الشجن والأسى، فلم تجد حارسًا تسأله حيث لم يبل من مرضه بعد، فولجت إلى الداخل ورنت الجرس ففتحت لها العاملة.

فقالت أسيل .. السلام عليكم .. هل الأستاذة أسيل هنا؟

فسمعتها المربية فهرعت إليها وقالت بحزن بالغ.. هل أنتِ رحمة صديقتها

_نعم. كيف حالها؟..

_لا أحد يعلم عنها شيء.

_كيف ذلك؟

_لقد خرجت منذ يومين في جوف الليل .ولم تعلم أحد بأمر خروجها

_وأين زوجها؟

_نجهل أيضًا أخباره .فنحن لم نره منذ ثلاثة أيام.. ولم تعلمنا السيدة أسيل بأي شيء يخصه، وقد خرجت فجأة مذعورة أثناء الليل ثم عادت إلى الفيلا متأخراَ و كانت حالتها مزرية والكمد يستحوذ كيانها والشرود يتملك عقلها.

_ألم تخبرك أي شيء؟

_آخر ليلة كانت بها هنا .. جاءتني في وقت متأخر من الليل .. وأوصتني بعناية طفلتها ورعايتها والاهتمام بها.

_ثم ماذا؟

_لا شيء آخر.

_هل قمتم بإبلاغ الشرطة؟

_لم نقم بذلك يا سيدتي.. فنحن في حيرة وعشواء من أمرنا..

_أليس لديها أقارب أو معارف أو أصدقاء؟

_أعتقد لا .. فأنتِ صديقتها الوحيدة. وكنتِ أظن أنك تعرفين شيئًا عنها

_هل ممكن أن نتفقد حجرتها فربما نجد خيطًا أو دليلًا يمكنا من العثور عليها.

ثم عرجت رحمة إلى غرفة أسيل وأحدجت النظر فيها، فرأت الظرف الأبيض الموجود فوق المنضدة فأسرعت إليه وقامت بفتحه فقرأت التالي.

إلى ابنتي الغالية لين

لا تحزني على وفاتي.. فلقد تركت لكى ثروة طائلة ستجعلك تعيشين في رغد ودنيا دانية.

ولكن يا غاليتي .. لي لك وصية بل ثروة هي أفضل من خزائن الأرض وأغلى من كنوز الدنيا. إذ امتلكتِ هذه الثروة النادرة فستغدى من أغنى النفوس وأقوى البشر على ظهر المعمورة. هذه الثروة هي الحلم والعفو. لقد قال الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام(إن الإنسان القوى هو من يملك نفسه عند الغضب).

جاهدي نفسك من أجل كظم الغيظ ثم العفو عن الناس، نفسك من أجل اكتساب صفة حميدة اسمها الحلم، حاولي أن تتسلحي به دائمًا، قاومي الغضب ولا ترضخي لنزعاته المدمرة، لا تكوني أسيرة له، فإن تغلبتِ عليه كسبت كل شيء، وإن تغلب عليك خسرت كل شيء، فالغضب يا عزيزتي يولد الحقد والحقد يولد الخراب والخراب يولد الخسران، وهكذا كانت حكايتي، فغضبى هلكني،

بسبب الغضب خسرت الدنيا والآخرة.. فلتقهري الغضب قبل أن يقهرك.

وأخيراَ يا بنيتي.. سامحني .. وأدعو لي دائمًا بالرحمة والمغفرة.

وتذكريني دومًا.

أمك المحبة الراحلة .. أسيل.

طويت رحمة الرسالة والعبرات تتساقط من مقلتيها، ثم رنت إلى المربية وقالت بصوت شجى.. . المسكينة .. يبدو أنها حاولت الانتحار إثر أزمة شديدة ألمت بها وكدرت صفو معيشتها .. سنقوم فوراً بإبلاغ الشرطة بأمر اختفائها .. ثم التحري المستمر والبحث المستميت عنها في جميع المستشفيات وفي كافة الأماكن التي من المحتمل أن ترتادها .. لعل الله يرحمها وينجيها هو وحده قادر على كل شيء.. .

لعل الله يحدث بعد ذلك أمرَا.

٢٦

جلست رحمة في الصالون وهي واجمة وجلست كنفها المربية والقلق يسود الأجواء، فجاءت إليهن الطفلة لين ونظرت إلى مربيتها في استجداء ثم قالت بصوت تخالطه العبرات.. أين أمي؟

_فربتت رحمة عليها في حب وعطف ثم قالت.. لا تقلقي يا عزيزتي إنها في سفر وستعاود إليكِ قريباَ بإذن الله.

فقالتا المربية محاولة منها لسلوتها عن الأسف الذي يجيش بصدرها الصغير.. والآن تعالي معي إلى شرفة حجرتك كي نطعم عصافير الكناري والببغاوات.

فابتسمت لين ابتسامة يشوبها الحزن ثم قالت. هيا بنا .. مساكين فلقد نسينا أن نطعمهم في باكورة هذا اليوم. أحبهم كثيراَ .. لأنهم هدية غالية من أمي الغالية.

فخرجت المربية وبصحبتها لين، بينما ظلت رحمة بالصالون والوجوم يرفرف على وجهها والتوتر يرافقها، فدعت الله تضرعًا و خيفة وقالت.. يارب .. يا ملوك الملوك.. يا أكرم الكرمين .. وأرحم الراحمين .. يا سميع يا قريب يا مجيب الدعاء. أكتب النجاة والسلامة لأمتك الفقيرة إليك أسيل. إنها طيبة ومسكينة. وأنتِ رؤوف رحيم بعبادك يا ذا الجلال والإكرام.. اللهم آمين.

حتى رن جرس الباب، فبادرت رحمة بفتح الباب، فوجدت أمامها فتاة في شرخ الشباب قسيمة الملامح. فقالت بترحيب واستفسار. أهلًا وسهلًا.. من أنتِ؟

_أنا بسنت ابنة الدكتور شهاب.

_فقالت وهي مندهشة .. مرحبًا بكِ .. تفضلي.

فجلست بسنت في الصالون وراحت تحدج بنظرها يمينًا ويسارا في كافة أرجاء الفيلا، بينما قالت لها رحمة وهي متلهفة. أين والدكِ؟

_والدي.. !!!!.. ألا تعلمين أين والدي؟!!!

_لا.. ولا أعلم أيضًا أنه لديه ابنة شابة. فأنا صديقة أسيل.. وهذه هي المرة الأولى التي أراك فيها.

_ صديقة أسيل.. أين هي بالله عليك؟.. أريدها في أمر ضروري وعاجل..

_لا أعلم. لقد زعمت أنك تعلمين نبأها .. وتعرفين مكانها

فقالت بسنت والحيرة تأخذها.. طالما أنت صديقتها فسأقص عليك ما حدث بالتفصيل لعلنا نستدل على مكانها.. فراحت بسنت تروي لها حكايتها منذ البداية وعندما توصلت إلى الحادث الأليم الذي حاق بوالدها التقطت أنفاسها بالكاد ثم استطردت قائلة. فخرج الطبيب وأفجعنا بخبر وفاة أبي .. فسقطت مغشيًا على، وداهمت

الصدمة الشديدة نفس أسيل فركضت خارج المشفى واللوعة تتملكها والوله يذهب بعقلها ولم أعلم عنها شيئًا، وبعد ثواني استفقت، فوجدت خالتي وخطيبي، فتذكرت النازلة فاستخرطت في بكاد حاد فحاولت خالتي تهدئتي وبعد هنيهة فوجئنا بنفس الطبيب يأتي إلينا حثيثًا .. ثم قال. تقبلوا جميعكم اعتذاري وأسفي الشديد. فلقد حدث خطأ. فالذي توفى جراء النزيف الحاد هو الرجل الذي تصادمت سيارته مع سيارة الدكتور شهاب، أما الدكتور شهاب فهو مازال على قيد الحياة وقد كتب الله له النجاة ولكنا بحاجة عاجلة وفورية إلى عملية جراحية دقيقة في النخاع الشوكي.. فسجدت لله شكرا. وتم إجراء العملية الصعبة وكانت حرجة جدًا إذ استغرقت وقتًا طويلًا وساعات عدة، ويشاء الله القدير أن يكلل مجهود الأطباء الشاق بالنجاح ولله الحمد، فنجحت العملية واستفاق أبي من المخدر وتحسنت حالته كثيرا، وعندما رآني سألني عن أسيل .. وأعلمني أنه يود رؤيتها. فتلعثمت في إجابته .. لأن قلقي الشديد عليه إنساني أمر أسيل التي فطر قلبها على شائعة وفاته وخرجت تركض وهي محزونة وملتاثة ولا أعلم حينها أين ذهبت .. وانشغالي بعملية أبي الحرجة جعلني أسهو عن الاتصال بها كي أطمئنها على صحة زوجها، وأعلمها أنه مازال حيًا يرزق.

فتنهدت رحمة وقالت بألم بالغ. المسكينة لا أحد منا يعلم أين ذهبت.. لكننا قمنا بإبلاغ الشرطة.. وجاري البحث عنها..

ثم رن جرس الباب، وكان الطارق شرطياَ، فشحب لون الجميع ووجلت قلوبهم وغصت نفوسهم عندما أخطارهم بالآتي..

بعد إجراء التحريات و أقوال شهود العيان تأكدنا من السيدة أسيل اتجهت إلى النهر واستقلت قارباً صغيراَ فغرق بها في منتصف النهر، فقامت فرق الإنقاذ النهري على الفور بمسح النهر فتبين وجود جثمان لامرأة يناهز عمرها الاربعين فتم انتشاله، وندعوكم الآن للذهاب إلى المشرحة ومعاينة الجثمان والتعرف على هويته ..

فقال الجميع في صوت واحد .. لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ربنا لا نسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه.

وبعد أن تمت المعاينة سجدت رحمة شكراَ لله وكذلك بسنت والمربية، لأن الجثمان لم يكن لأسيل بل كان لامرأة أخرى غرقت في النهر في نفس الليلة..

٢٧

(قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعًا).

سمعت تلك الآية الكريمة عبر إذاعة القرآن الكريم قبيل آذان الفجر بين أرجاء غرفة بيضاء بمشفى

ففتحت المريضة الزاوية طريحة الفراش عينيها وكأنها تسمع تلك الآية لأول وهلة في حياتها فقالت وهي متدبرة .. ما أجمل تلك الآية .. أشعر براحة شديدة تنسكب في قلبي جراء سماعها .. ثم أحدقت ببصرها في جميع أركان الحجرة .. فقالت وهي عاجبة .. ولكن أين أنا؟

فجاءتها الممرضة على الفور وهي مبتسمة الثغر .. حمدًا لله على سلامتك.

_أين أكون بالله عليك؟.. هل مت؟..

_اطمئني .. أنتِ بخير والحمد لله.. إنكِ الآن بالمشفى.

.. فلقد أحضرك إلى هنا أحد الصيادين وكنت فاقدة الوعى.. حيث أنقذك من الغرق في اللحظات الأخيرة وكان يظن هو الآخر أنكِ قد فارقت الحياة، ولكنه شعر بأنفاسك وهي تتصاعد فأحضرك توا إلى

هنا وتم إسعافك ولله الحمد. ولم نعلم أهلك بذلك .لأننا لم نجد أوراقًا بحوزتك تثبت هويتك، أو أوراقًا نستدل بها على عنوانك وأرقام وهواتفك..

_فقالت بصوت مرهق للغاية .. لقد غرقت حقيبة يدي في النهر وكان بها هاتفي وهويتي الشخصية..

ثم أخبرت أسيل الممرضة بهويتها وعنوانها، فذهبت على الفور كي تتصل بأهلها، بينما شرعت أسيل في مسح العرق الذي تصبب على ناصيتها ففوجئت بأن معصمها خالياَ من السوار المدمر فصاحت وهي محبورة ومنتاشة .. الحمد لله .. الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه .. فلقد أصبحت حرة .. لقد عدت سيرتي الأولى طيبة النفس .. نقية القلب .. زكية الفؤاد.. اليوم هو يوم مولدي.. فلقد ولدت من جديد .. أخيراَ وبعد عناء طويل قد تخلصت من السوار الخبيث اللعين. لقد خلع من معصمي أثناء لحظات غرقى بالنهر، ثم نهضت على الفور وتوضأت وصلت الفجر، واستغفرت الله وحمدته وشكرت فضله عليها قائلة . وهي ساجدة وتبكى في خشوع وأوبة وإنابة وتذلل.

يارب يا كريم يا حنان يا منان يا واسع الفضل يا رحيم يا رحمن يا أحد يا واحد يا صمد، لك الحمد والشكر عدد خلقك ورضاء نفسك وزنة عرشك ومداد كلماتك. فلو عشت عمري كله ساجدة لك فلن أتم شكرك وحمدك ولن أفي بحقك على رحمتك الواسعة وكرمك

وجودك وفضلك، فلقد رحمتني ومنحتني فرصة ثانية في الحياة وكتبت لي النجاة.. فاغفر لي يارب وارحمني إنك الغفور الرحيم وتقبل توبتي وإنابتي يا واسع الفضل.

وبعد أن فرغت من الصلاة والدعاء والابتهال جاءتها الممرضة وقالت. لقد أخبرنا ذويك وهم على مشارف القدوم، ثم مدت يديها إليها وكانت قابضة على شيء ما ثم استطردت. هذا السوار وجدته بجانبك على السرير، يبدو أنه قد خلع من يديك أثناء غيابك عن الوعي.

فأخذته أسيل بأيد مرتجفة وهي تقول. ليتك كنت ترمينه في سلة المهملات.

_وجدته مبهرَا.. فزعمت أنه ثمينًا وقيمًا.

_بل هو أرخص الأشياء وأحقرها .. ثم رمت به أسفل وسادتها وهي مزمعة على حرقه بمجرد خروجها من المشفى حتى لا يبتلي أحد آخر إذا ألقته في القمامة.

برأت أسيل من وعكتها وعادت ثانية إلى فيلتها، وعندما علمت بأن زوجها مازال على قيد الحياة سجدت لله شكرَا، وقرت سريرتها وزهر محياه وقامت بعيادته توا، فانبسطت أساريره برؤيتها وعندما سألت الطبيب المعالج عن حالته الصحية، أخبرها أنه سيمكث بالمشفى بضعة أيام ريثما يتحسن نهائيًا، وطمئنها أنه في طريقه للشفاء التام والإبلال من علته في القريب العاجل بمشيئة الله.

ومن هنا انشرح صدرها واستنشقت هواء السكينة وراحة الضمير واشتمت رحيق الطمأنينة والرضاء، فثاوبت إلى فيلتها وقد عزمت على تنفيذ أمرَا لحوحًا تكتمه بين ضلوعها حتى تكتمل أريحية نفسها، وفي نفس اليوم قرت عينا برؤية صديقتها رحمة التي زارتها كي تطمئن عليها،

فقالت لها رحمة وهي مبتهجة لعودة أسيل إلى بيتها بعد حادث الغرق الذي كاد أن يودى بحياتها.

_كيف حالك اليوم؟

_بخير ولله الحمد.

_لكني أشعر بأن هناك شيء يشغل تفكيرك ويؤرق حياتك.

_ نعم الصديقة أنتِ .. فلقد علمت بما يدور في خاطر صديقتك.

_ما هذا الشيء؟.. لعله يكون خيراَ.

_ لقد عقدت العزم على طلب الطلاق من شهاب عندما يخرج من المشفى.

فقالت وهي متعجبة.. لماذا.؟

_لأني السبب فيما حدث له.

فقالت والدهشة تتملكها.. كيف؟.. لا أفهم شيئًا.

_هذه حكاية طويلة وشائكة ومركبة ..

_ثقي بصديقتك الوفية رحمة .وأحكيها لي بكل وضوح. فربما أستطيع مساعدتك .. كما قمت بمساعدتي ومد يد العون والغوث لي في الماضي القريب.

_حاضر.. سأحكي لكى كل شيء..

مضى وقتًا مليَا وأسيل ما برحت تقص وتروي حكايتها الأليمة المعقدة مع السوار المدمر منذ أن وجدته حتى لحظة غرقها في النهر وعندما انتهت من الروى باستفاضة وتفصيل أخذت نفسًا عميقًا ثم استأنفت.. هذا هو السر الذي كنت أضمره في نفسي

لبضع سنوات .. ولم أفض به لأحد قط غيرك لأنى أحبك في الله وأثق في وفائك وإخلاصك لي.. وأعلم علم اليقين أنى ستحفظين سرى ..

_فقالت رحمة والغرابة تأخذها. حكاية أغرب من الخيال. ولكن .. اشعر بأن هناك حلقات مفقودة وأشياء مجهولة فيها.

_مثل ماذا؟

_ فلقد خلع السوار من معصمك .. بينما البردية تنوه بأن السوار لن يخلع من المعصم إلا عند الوفاة.

_ربما خلع لأني تجرعت مرارة الغرق وعشت لحظات الموت.

_لكن الله قد كتب لكي النجاة. فلماذا خلع السوار من معصمك؟.. ولماذا نجا زوجك الذي تمنيت له الهلاك من هذا الحادث الأليم؟

_هذا أمر محير حقًا.. ولكني لا أدري بخبايا الأمور.

_أين السوار والبردية؟

_احتفظ بهما لأني أزمعت على حرقهما؟؟

_تريثي قليلًا .. ولا تقدمي على فعل ذلك حتى تظهر الحقيقة.. أخبريني.. كيف قمت بترجمة البردية. هل تجيدين اللغة الهيروغليفية؟

_لا. بل استعنت بالقواميس والمراجع التي ساعدتني في الترجمة. أي أن الترجمة كانت أمرَا اجتهاديًا مني؟

_لقد برح الخفاء؟.. أعطيني الآن البردية حتى أقوم بترجمتها .. فأنا أجيد اللغة الهيروغليفية وهي مجال دراستي.

انكبت رحمة على ترجمة البردية وعندما فرغت من ذلك هرعت إلى أسيل بوجه بش وقلب مطمئن. فقالت لصديقتها وهي باسطة يديها إليها بورقة .. تفضلي يا عزيزتي هذه هي الترجمة الصحيحة والدقيقة والصائبة للبردية.

فأخذت أسيل منها الورقة وشرعت في قراءة التالي:

سوار الملكة سويك

لقد تقلدت الملكة سويك نفرو حكم البلاد وهي ابنة الملك أمنمحات الثالث وقد تولت الحكم لمدة ثلاث ونصف سنوات .. فقام أحد الكهنة بإهدائها سوارا نفيسًا باهرًا قد أمر الصناع والحرفيين بصناعته خصيصًا كي تتزين الملكة به ويجعلها متفردة ومتميزة.

فقدمه إليها الكاهن كهدية، فأثنت الملكة عليها وانبهرت بجماله وسحره الأخاذ، فطوقت به معصمها وأشادت بذوقه الرفيع وبروعته المنقطعة النظير والتي تأسر الألباب وتستميل القلوب.

فأخبرها الكاهن أن السوار قد صنع من أندر وأثمن وأغلى الأحجار الكريمة الموجودة في البلاد.

فقالت له الملكة سويك .. لا أريد أن يرتدي هذا السوار أو ما يشابهه أية امرأة غيري.

فطمئنها الكاهن قائلًا: .. لن يحدث ذلك أبدًا.. وأحب أن أعلم الملك أن السوار قد صنع بطريقة علمية فذة بحيث لا يخلع من يد الملكة إلا بعد غمره بمياه النيل مدة طويلة لا تقل عن ساعتين متواصلتين ..

_فقالت له الملكة .. وبعد وفاتي

_العمر الطويل لجلالة الملكة .. في هذا الحين فسنقوم بإرفاق السوار معك في التابوت حتى لا تتمكن امرأة أخرى من العثور عليه وارتدائه.

ترنحت أسيل بعد أن قرأت الترجمة الصحيحة فشعرت بدوخة ودوار، فأسندتها رحمة وأجلستها على الأريكة وأحضرت لها كوبًا من الماء، وبعد أن تجرعت الماء، تنهدت بحرقة ثم قالت بذهول. لا أصدق..

_أقسم لكِ بأن ما ترجمته هو مضمون البردية الحق.

_وماذا عن الحوادث والنكبات التي ألمت بعمي سلمان وماجد مالك البيت الذي أقطن به والرجل الذي قذفني بالشتائم، وقطاع الطرق، والمجرم العتيد، ومسعود حارس الفيلا. وأخير زوجي.

_قد تكون مصادفة ليس أكثر.

_كيف ذلك؟.. كيف ذلك؟

_بالنسبة للمجرم وقطاع الطرق فأوزارهم هي التي قتلتهم وأودت بحياتهم وليس أنتِ.

_والبقية؟!!

_العلم عند الله.

وبعد هنيهة أعلمت الخادمة أسيل بأن مسعود الحارس يود رؤيتها، فدلف إليهن مسعود وهو بارئ ومعافي من دائه المزمن، فنهضت أسيل وقالت له وهي مبتهجة. الحمد لله على سلامتك. تفضل بالجلوس.

فقال لها .. أنا مدين لكِ .. فلقد تكفلت بنفقات علاجي الباهظة..

_أنسيت أنني كنت السبب في الداء الذي حاق بك.

_ حاشا لله .. لا تقولي ذلك .. فتقصيري وإهمالي هم السبب الرئيسي.. فلقد أصبت بالتهاب السحايا و أوصاني الطبيب بضرورة المواظبة والفحص السريري الدوري، وحذرني من التكاسل والتقصير؛ لأن ذلك سيؤدى إلى مضاعفات خطيرة كالشلل النصفي .. فلم أنفذ تعليمات الطبيب .. وتركت الدواء وأهملت العلاج فكانت عاقبتي كما رأيت.

_الحمد الله كثيراَ .. والآن استلم عملك وسأضاعف لك راتبك.

فخرج مسعود إلى الحديقة وهو قرير النفس، بينما ابتسمت رحمة ورنت لأسيل ثم قالت. ألم أقل لك أنها مصادفة. فلقد قال العلم كلمته .فلا تسرفين على نفسك في اللوم والعذل..

_وماذا عن البقية؟

_ اصبري فربما تكشف لنا الأيام القادمة عن أمور نجهلها.

٢٧

وفي اليوم التالي حضرت رحمة إلى أسيل وبحوزتها بعض صفحات من الجرائد القديمة، فتعجبت أسيل وقالت .. جرائد قديمة .. ما الخطب؟

_ أنا لدي هواية اقتناء الجرائد القديمة والاحتفاظ بها .وعندما أعلمتني بتواريخ الحوادث التي وقعت نصب عينك بحثت كثيراَ حتى وفقتك الله تعالى في العثور عليها .. والآن اقرأي .. بتدبر وتمعن وتركيز.

فأخذت أسيل منها الجريدة وكانت صفحة حوادث وقضايا واستغرقت في قراءة التالي.

مصرع رجل في حادث تصادم

لقى أحمد عبد الموجود مصرعه إثر اصطدام سيارته بشاحنة بضائع كبيرة .. وبعد تقرير الطب الشرعي .. تبين أن القتيل كان يتعاطى المخدرات، وقد كان ثملًا أثناء القيادة مما أفقده الانتباه والرؤية الواضحة فانحرف عن مساره واصطدم بالشاحنة، فتحطمت سيارته ولقى مصرعه الحال.

وعندما أفرغت من القراءة أعطتها رحمة الجريدة الأخرى. فشرعت في قراءة التالي.

مصرع رجل وامرأته بعد انقلاب سيارتهما في النيل.

تجمهر المارة على حادث أليم حيث قد انقلبت سيارة يقلها رجل وامرأة وابنتهم الرضيعة بالنيل.

وقضى الجميع نحبهما اختناقًا بالسيارة، وقد تم انتشال الجثامين باستثناء جثمان الرضيعة فلم تتمكن فرق الإنقاذ من إيجاده بالنهر، وأكد شهود العيان أن قائد السيارة كان يقود بسرعة جنونية طائشة.

مما جعله يفقد السيطرة على فرامل السيارة وأودى به ذلك إلى الانقلاب في النهر في الحال..

وضعت رحمة الجرائد وزفرت زفرة عميقة ثم قالت: لرحمة. ما فحوى ذلك؟

_المغزى من كل ذلك .. إن كل نفس بما كسبت رهين. فالرجل الذي سبك وشتمك كان يتعاطى المخدرات .. ولقى مصرعه نتيجة استهتاره بصحته وحياته. أما طليقك فلقد لقى مصرعه جراء قيادته بسرعة جنونية فائقة وهذا أيضًا يندرج تحت بند الاستهتار بالحياة.. نستقرأ من كل ما سبق. أنك بريئة كبراءة الذئب من دم ابن يعقوب .. وليس لديك أي وزر أو إثم فيما حدث.. وكل ما دار

وجاش في نفسك وخلدك في الفترة الماضية لم يكن سوى أكاذيب وهواجس وأوهام وتخيلات من الشيطان حتى يحزنك ويرهبك ويزيغ بك عن الحق ويبعد عنك السكينة وراحة البال.

_وماذا عن العالم الروحاني وحديثه معي بشأن السوار؟

_ إنه دجال كاذب..

_وماذا عن زوجي؟

فرن جرس الباب .. فقالت الخادمة لأسيل .. يوجد رجل وامرأة بالخارج يودان رؤيتك.

فدخل الرجل وامرأته، فنهضت أسيل والذهول يدثرها ثم قالت .. عمي سلمان وزوجته .. هل هذا حلم.

فأجاب العم والندم يخيم على كيانه .. إنه ليس حلم يا ابنة أخي .. بل حقيقة..

_فقالت رحمة. تفضلًا بالجلوس.

فجلس الاثنان في واجهة أسيل، فشخصت أسيل إلى زوجة عمها فألفتها هزيلة ذاوية شاحبة .. فأطرقت زوجة العم بصرها والخجل يخامرها على أفعالها النكراء سلفًا.

فقالت أسيل .. مرحباً يا زوجة عمي .. كيف حالك؟

_الحمد لله في السراء والضراء.

_فقال العم وهو نادم وطالب للصفح.. . لا يا أسيل فلقد تقصيت عنك وبحثت حتى استدليت على عنوانك. ولقد جئنا إليك اليوم كي نطلب من السماح والعفو.

_يعلم الله أنني سامحتك يا عمي .. ولكن أخبرني لقد علمت أن بيتكما قد تهدم .. فكيف نجوتما ؟.. فلقد زعمت أن مكروه ما أصابكما؟.. ولقد انشرح صدري عندما رأيتكما اليوم سالمين.

_ لقد كان هذا إهمال منا .. فلقد علمنا مؤخرًا أن البيت متصدع وآيل للسقوط في أي لحظة .. ومع ذلك لم نحرك ساكنًا لمغادرة البيت والبحث عن سكن آخر.

.. ولكن العناية الإلهية قد تدخلت وأنقذتنا .. حيث لذنا بالفرار أنا وزوجة عمك .. قبل تقوض البيت وانهدامه بثواني.

_الحمد لله على سلامتكما.

فرنت زوجة العم إلى أسيل وهي نادمة تائبة.. ثم قالت. عقدت العزم على البحث عنك وزيارتك كي تسامحني قبل وفاتي .. فلقد أخطأت في حقك وافتريت عليك وكذبت .. فهل من صفح وسماح قبل أن أقابل رب كريم.

_لقد سامحتك يا زوجة عمي .. فالله العظيم مالك الملك والملكوت يغفر ويرحم.. وماذا أكون حتى لا أسامح وأعفو عن سقطات البشر؟!!.. فأنا أمته الفقيرة إليه راجية عفوه ومغفرته.. ولكني أشعر بأنك شاحبة ومرهقة. فما بكِ؟

فقالت والدموع تسح من عينيها.. لقد داهمني المرض الخبيث مؤخراَ.

_لا حول ولا قوة إلا بالله .. أسأل الله رب العرش العظيم أن يشفيك. سأتكفل بنفقات العلاج جميعها.

_فقال العم شاكراَ. نشكرك على كرم أخلاقك ونبل سريرتك .. فأنتِ طيبة القلب ونقية النفس.

_فقالت أسيل باستفسار.. عمي .. أريد أن أسألك عن ماجد الذي كنت أستأجر شقة في بيته.. لقد علمت أن بيتهم قد استعرت به النيران فكيف حالهم؟

_لقد تفحم البيت بأكمله .. أما آل البيت فلقد نجوا جميعهم .. أما ولده فلقد حرقت يديه أثناء محاولته لإخماد الحريق .. لكنه مازال على قيد الحياة لكن بيدين مشوهتين.

فغمغمت أسيل وقالت. الحمد لله .. الآن انجلى عن كاهلي عبئًا ثقيلًا وهمًا ناصباَ.

فسكن الأثنان لديها بالفيلا وقتًا وجيزًا، وتكفلت بنفقات إجراء عملية زرع النخاع لزوجة عمها، وكتب الله للعملية النجاح وبرأت زوجة عمها بفضل الله من دائها العضال وعاد الاثنان إلى قريتهما حيث أخبروها أن قد شيدوا بيت صغيراَ بعد انهدام البيت القديم ويقطنون فيه في هدوء، وعاهدوها على زيارتها دومًا وصلة رحمها أمد الدهر..

وأثناء ارتياد أسيل لمشفى الأورام برفقة زوجة عمها حيث كانت تلازمها باستمرار كي تخفف عنها وطأة أوجاعها وتهون عليها شدة مرضها، تألمت كثيراَ لآلام المرضى، وعلمت من الأطباء أن المشفى بحاجة عاجلة إلى بعض المعدات والأجهزة الطبية الحديثة، وكذلك بعض الأسرة حتى يسع المشفى لعلاج كافة الحالات ولا يرفض أية حالة بسبب عدم وجود أسرة شاغرة أو عجز في الأجهزة. فناجت نفسها وقالت:

أرثى لحال هؤلاء المرضى المعسورين الحال .. فلقد باع أخي آثار بلادة للغرباء والأجانب .. إنه باع حضارة بلده العريقة وتاريخها المزدهر. لكن لقد سبق السيف العذل.. لن أستطيع استرداد الآثار المبتاعة المسلوبة .. فهذا جد مستحيل .. ولن أستطيع إعادة عقارب الساعة إلى الوراء. كي أمنع ما حدث. فلقد حدث ما حدث. لكن مازالت ثمة مبالغ ضخمة وهائلة أدخرها في المصارف. لقد فقدت الوعي عندما تلقفت تلك الأموال وأنفقتها على الترف

والرغد والعيش الرحراح وحدي .. ونسيت أن هنالك مساكين ومعذبين وبائسين هم أحق مني بها .. تلك الأموال اللبد من الآن فصاعدا هي ليست ملكًا لي بل ملكًا لهؤلاء المرضى..

فقامت أسيل ببيع الفيلا والسيارة، ولم تنسَ العاملين لديها، حيث قامت بتوظيف الحارس والعاملة لديها بالمدرسة، أما الطاهي والمربية فقد أغدقت عليهم بمكافأة مالية مجزية وسرحتهما،

وتبرعت بجميع الأموال الطائلة التي تملكها إلى المستشفيات والمؤسسات الخيرية، ودعت لأخيها بالرحمة والمغفرة، وتضرعت إلى الله أن يرحمه ويتجاوز عن سيئاته ويدخله فسيح جناته، ولم تقم ببيع المدرسة حتى لا تتسبب في قطع أرزاق العاملين بها، وعاهدت الله على أنها سوف تقوم باقتسام الدخل والربح الذي سيدر عليها نصفه لها ولابنته والنصف الآخر للفقراء والغارمين والمساكين والمرضى وأولاد السبيل، واستأجرت شقة لها وعاشت فيها برفقة لين هانئة مطمئنة..

وذات يوم زارتها رحمة في شقتها الجديدة وقالت لها: .. معي ضيف يريد مقابلتك..

فألفت زوجها شهاب وقد تماثل للشفاء بعد ردحٍ من الوقت وبصحبته بسنت ابنته..

فقال لها _ألم يأن بأن تسكنين في بيتك مع زوجك وابنته وابنتك.

_بيتي؟!!

_نعم .. هيا حزمي أمتعتك .. وأمضى معنا..

_لكن..

_لا تقولي شيئًا .. لقد أعلمتني رحمة بالهاجس الذي يجتاح نفسك. لا تحملي نفسك مالا تطيق يا أسيل. فأنا السبب في هذا الحادث الذي حاق بي وليست دعوتك عليّ.

_كيف؟

_ لقد أصبت مؤخراً بالعشى الليلي. وحذرني الطبيب المعالج من خطورة قيادة السيارة ليلاً .. لكنني تجاهلت ذلك وتغاضيت عنه .. وعندما اتصلت بي بسنت في منتصف الليل.. خرجت كالملتاث وقمت بقيادة السيارة فتشوشت الرؤيا فلم أتحقق من وجود سيارة مقبلة حتى اتفادى الاحتكاك بها .. فكان ما كان. وحدث ما حدث. فهذا ذنبي وليس ذنبك.

فأقحمت رحمة نفسها في الحوار وقالت.. إنها كانت ذنوبهم وأزوراهم هم ولا يد لكِ فيها.. لقد هلكوا بسبب آثامهم وأخطائهم .. وليس بسبب ما كنت تزعمينه..

عاشت أسيل في بيت زوجها الرحيب برفقة لين وبسنت وكذلك شهاب سعيدة راضية.

ربها ومسبحة بحمده ومسارعة في الخيرات.

أما السوار والبردية فلقد أرسلتهما في صندوقهما عن طريق البريد إلى هيئة الآثار كي تبرأ ذمتها ويستريح ضميرها ..

خاتمة

قال تعالى:

(وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (134) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (135) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ(136)

صدق الله العظيم

تمت بحمد الله